# الباب الأوّل

# لغة الوحي الجديدة

obeikan.com

obeikan.com

# الفصل الأوّل

# الشخصيّة اللغويّة للقرآن الكريم

## خصوصيّة الكتاب:

أدركت الفطرة العربيّة، منذ اللحظات الأولى للتنزّل، أنّ كلّ ما يحيط بالقرآن الكريم يوحي بالجِدّة والخصوصيّة، بدءاً باسمه المميَّز (قرآن) الذي لم يعرفه العرب بهذه الصيغة اللغويّة الجديدة قبل الإسلام، وكأنّه يشير بتفرّده إلى تفرّد ما جاء تحته أو ضمنه من مقروءٍ أو مكتوب، ثم بالاسم الخاصّ والمميَّز لمقدّمته، الذي لم يشاركه فيه أيّ كتابٍ آخر من قبل أو من بعد (الفاتحة)، ومروراً باللفظ الخاصّ الذي سُمّيت به أبوابه أو فصوله (سُورة) وقد اشتُقّ من (السُّوْر) أي الجدار الذي يحيط بالمدينة أو القلعة لحمايتها، فكأنّه إشارةٌ سماويّةٌ مبكّرةٌ إلى حَصانة "سُوَر" القرآن وامتناعها على كلّ من يريد تقليدها أو تسلُّقَ حصونها أو العثور في جدرانها المستعصية على ثغراتٍ تسمح بالنفاذ إليها، ثمّ اللفظ الخاصّ (آية) الذي يعني (معجزة)، وقد أطلقه تعالى على الوحدات اللغوية الصغيرة الأولى للقرآن، وهي بمثابة الغرف والرَّدهات التي تتكوّن منها تلك القلعة، فكان إشارةً سماويّةً أخرى لتأكيد الصفة الإعجازيّة وعنصر التحدّي لكلّ وحدةٍ لغويّةٍ فيه، طالت أو قصُرت، وانتهاءً باللفظ (يتلو) أو (تِلاوة) المختصّ بقراءة القرآن الكريم وكأنّه إشارةٌ توثيقيّةٌ من السماء إلى أنّ الرسول ﷺ ليس أوّل من يقرأ هذه الآيات في الأرض بل هو "تالٍ" أو "ثانٍ" في قراءتها، فجبريل هو الذي قرأ أوّلاً والرسول هو الذي "تلاه" مقتفياً قراءته.

والعجيب أنّ هذه الأسماء الجديدة قد نصّ عليها القرآنُ نفسه في آياتٍ

عديدةٍ ولكن بطريقةٍ مميّزةٍ وخاصّةٍ به وحده، بحيث فهمناها من غير أن يشرحها لنا ومن غير أن يشير صراحةً إلى أنّه استخدم مصطلحاتٍ جديدةً ومختلفة، كما يمكن أن يفعل أيّ باحثٍ أو كاتبٍ لو ابتكر لكتابه منهجاً أو مصطلحاتٍ جديدةً تخالف ما جرى عليه الباحثون من قبله، بل إنها، في حالة القرآن الكريم، ستظلّ خاصّةً ومخالفةً لما سيجري عليه الباحثون والكتّاب من بعده أيضاً.

ويكتفي القرآن الكريم بأن يذكر هذه الأسماء المتفرّدة الجديدة، وفي آياتٍ عدةٍ، بطريقةٍ تجعلنا ندرك تلقائياً ما أُطلقت عليه، كما نتبيّن من هذه الآيات، وقد جُعلت الأسماء الجديدة بالحرف المائل:

- ﴿وإذا قُرئ القرآنُ فاستمعوا له وأنصِتوا لعلّكمْ تُرحَمون﴾ [الأعراف: 204]
- ﴿وقال الذين كَفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جُملةً واحدةً﴾ [الفرقان: 32]
- ﴿لو أَنزَلْنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيتَهُ خاشعاً متصدِّعاً مِن خَشيَةِ الله﴾ [الحشر: 21]
- ﴿يَحْذَرُ المُنافقون أنْ تُنَزَّلَ عليهمْ سُورةٌ تُنَبِّئُهمْ بما في قلوبِهمْ﴾ [التوبة: 64]
- ﴿سُورةٌ أنزلْناها وفرَضْناها وأنزَلْنا فيها آياتٍ بيّناتٍ﴾ [النور: 1]
- ﴿تلكَ آياتُ اللهِ نتلوها عليكَ بالحقّ﴾ [البقرة: 252]
- ﴿واتْلُ ما أُوحيَ إليكَ مِن كتابِ ربِّك﴾ [الكهف: 27]
- ﴿هوَ الذي بَعثَ في الأمّيّين رسولاً منهمْ يَتلو عليهِمْ آياتِه﴾ [الجمعة: 2]

**التحدّي القرآنيّ:**

وكان تنزّلُ القرآن منجّماً على مدى ثلاثةٍ وعشرين عاماً ظاهرةً جديدةً لم تحدث لكتابٍ سماويٍّ من قبل، فقد كانت تلك الكتب تنزل على الأنبياء دفعةً واحدةً كما هو معلومٌ لدى أهل تلك الكتب الكريمة.

ولكنّ الأهمّ من ذلك أنّه لم يحدث لأيٍّ من تلك الكتب أن تحدّت من تنزّلت إليهم من الشعوب، ولو مرَّة واحدة، بأن يأتوا بمثلها، أو بمثل جزءٍ

صغيرٍ منها على الأقلّ، كما فعل القرآن الكريم في آياتٍ عديدة، وهو ما يضفي عليه جوانب أخرى من الفرادة والخصوصيّة والتميّز. وانظر كيف تدرّج التحدّي من (الإتيان بكتابٍ مثله) حتّى وصل إلى (الإتيان بسورةٍ واحدة):

- ﴿ومَنْ أَظلَمُ ممّن افترَى على اللهِ كَذِباً أو قالَ أُوْحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيءٌ ومَنْ قالَ سأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام: 93]
- ﴿فلْيَأتُوا بحديثٍ مِثْلِه إنْ كانوا صادقين﴾ [الطور: 34]
- ﴿قُلْ لئنِ اجتمعتِ الإنْسُ والجِنُّ على أنْ يَأتُوا بمِثْلِ هذا القرآنِ لا يَأْتُونَ بمِثْلِهِ ولو كان بعضُهمْ لِبعضٍ ظَهيراً﴾ [الإسراء: 88]
- ﴿قُلْ فأتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ﴾ [هود: 13]
- ﴿وإنْ كنتمْ في رَيبٍ ممّا نَزّلْنا على عبدِنا فأْتوا بسُورةٍ مِنْ مِثْلِه﴾ [البقرة: 23]
- ﴿أمْ يقولون افْتراهُ قُلْ فأْتوا بسُورةٍ مِثْلِه وادْعُوا مَنِ استطعتُم﴾ [يونس: 38]

ولو وقفنا عند السوَر واحدةً واحدة، وعرفنا أنّ عدد المواقع القرآنيّة الجديدة، والنقاط المتفرّدة المكتشَفة، يزيد في كلّ سورةٍ على عدد كلمات هذه السّورة، وأنّ في سورةٍ قصيرةٍ، كالفاتحة مثلاً، مكوَّنةٍ من (29 كلمة) ما لا يقلّ عن 58 من هذه "المستجدّات"، وفي سورة الناس (20 كلمة) ما لا يقلّ عن 33، وفي سورة الفلق (23 كلمة) ما لا يقلّ عن 38، وفي الإخلاص (15 كلمة) ما لا يقلّ عن 22، وهكذا في سائر السور، أدركنا حجم المفاجأة أو الصدمة التي أحدثها القرآن، بشخصيّته اللغويّة المتفرّدة، في نفوس العرب آنذاك، وتفهّمنا تأثير هذه الصدمة على عُتبة بن ربيعة حين سمع الرسول ﷺ يقرأ عليه، أوّل مرّة، ثلاث عشرة آيةً، فلم يستوعب منها، وهو المذهول ممّا سمع، إلّا آخر آيةٍ قُرئت عليه.

هذه "الصدمة" اللغويّة التي أصابت العربيّ الأوّل كانت أشبه بالصدمة الكهربائيّة التي يُجريها الأطباء اليوم على مريضٍ توقّف قلبه عن الخفقان رجاء إعادة الحياة إليه. وكأنّ الله، تعالى شأنه وجلّت حكمته، أراد أن يعيد بهذه الصدمة اللغويّة الصاعقة الحياة إلى القلب الجاهليّ الميّت في نفوس العرب

أوّلاً، قبل أن يعودوا إلى القرآن فيسمعوه من جديد، ويستوعبوا معانيه، ويتحقّقوا من جِدّته وتميُّزه، ويسلّموا بإعجازه.

لقد لانت قلوب كثيرٍ منهم للّغة الجديدة واستسلمت حال سماعها للآيات الأولى من الوحي فاعتنقت الإسلام، بل إنّ قلوب بعضهم كانت أضعف من أن تتحمّل صدمةً بهذه القوّة، فما أن سمعوا آياتٍ من القرآن الكريم حتّى شهقوا شهقةً فارقوا معها الروح. ويتحدّث السيوطيّ عن قائمةٍ صُنّفت في أولئك الذين ماتوا حال سماعهم للقرآن[1].

لا تعجبوا لهذا، فلعلّكم تستطيعون أن تتصوّروا معي حالةً من حالات الوفاة هذه. فماذا يمكن أن يحدث لأحدنا لو أنّ زميلاً له أخبره بأنّه حين يعود إلى بيته سيجد شخصيّةً كبيرةً تنام في فراشه -وليفترض أحدكم هذه الشخصيّة: قد تكون رئيس دولته أو ملِكها، أو ربّما رئيس أكبر دولةٍ في العالم-. فإذا عاد إلى منزله في المساء، وفتح الباب، وخطا إلى الداخل، وهو ما يزال ينفي عن ذهنه تماماً تصديق تلك المزحة السخيفة، يفاجأ برائحة عطرٍ غريبٍ لم يعتدها من قبل في بيته، فتبدأ الشكوك تساوره، ثمّ يمدّ رأسه من باب غرفة نومه ويفاجأ مرّةً أخرى بأنّ هناك كتلةً تتكوّم تحت غطاء سريره، فتتسارع نبضات قلبه، ويمدّ يده المرتجفة ليكشف الغطاء وإذا برأسٍ بشريّةٍ تشبه حقّا رأس تلك الشخصيّة، فيتبادر إلى ذهنه، وهو ما يزال يصُرُّ على أنّها مزحةٌ سخيفة، أنّ الرأس التي أمامه ما هي إلّا لعبةٌ أو تمثالٌ وضعه له أحدهم لإكمال المزحة، ولكنّه يصعق ويرتدّ إلى الوراء وهو يرى يداً بشريّةً تمتدّ من تحت الغطاء لتصافحه، ويفاجأ بصوتٍ، هو حقّاً الصوت الذي يعرفه لتلك الشخصيّة، يقول له: أنا فلان، يسعدني أن أراك يا بسّام؟..

تُرى كم منّا من يملك قلباً له من القوّة ما يكفي لتحمّل مثل تلك المفاجأة؟

فكيف بنا لو كانت المفاجأة مع الله؟ كيف سيكون شعور من سمع بأنّ فلاناً يدّعي أنّه نبيٌّ، وأنّ لديه ما يزعم أنه كلامٌ بَعَث به إليه، ومع ملاكٍ

(1) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص238.

عجيب، خالقُ السماء والأرض؟ قد يصرّ أوّلاً على استحالة وقوع أمرٍ كهذا، ثمّ يهبّ إلى ذلك "المدّعي" ليسمع منه ويدحض "أكذوبته" الكبيرة، فيسمعه يردّد الآية الأولى فتتسارع نبضات قلبه وهو يحسّ بشيءٍ غير عاديٍّ فيها، ولكنّه يصرّ على المكابرة، ثم يسمع الآية الثانية فيرتعش ويرتجف، وهو ما يزال يحاول إقناع نفسه بأنّها لا يمكن أن تكون لغة الله، ثم يسمع الثالثة فالرابعة، وتتوالى عليه الصدمة إثر الأخرى، حتّى يبدأ بالانهيار ويجد نفسه فجأةً، وهو في محنة مواجهة اللغة الجديدة المحيِّرة، وجهاً لوجهٍ مع الله؟

هل استطعت أن أقرّب لكم صورة الصدمة اللغويّة الهائلة التي تلقّاها العربيّ الجاهليّ عند سماعه لكلمات الوحي الأولى؟ وهل تتوقّعون أن تكون قلوب جميع العرب، على ما منحتها البادية والصحراء من قسوةٍ وتحمّل، قادرةً بالدرجة نفسها على تلقّي تلك الصدمة؟

**الفن الأدبي الجديد – أدب السورة:**

هذا "الفنّ الأدبيّ" الجديد الذي تنزّل على العرب فجأةً من السماء، لم يكن ينضوي تحت فنّ الخَطابة، وقد عرفه العرب تماماً وأبدعوا فيه، ولم يكن ينتمي إلى سجع الكهّان، وقد عرفه العرب أيضاً وتركوا لنا منه نماذج قليلةً وإن لم نكن متأكّدين من صحّة أيٍّ منها، ولم يكن ينتمي إلى فنّ الرسائل، وقد عرفه العرب في نطاقٍ محدودٍ جداً بسبب ندرة من يكتب بينهم، كما لم يكن ينتمي إلى فنّ الشعر، وقد عرفوه حقّ المعرفة، ووصل إلينا من إبداعاتهم فيه أكثر من عشرين ألف بيت. لم يكن الفنّ القرآنيّ الجديد ينتمي إلى أيٍّ من هذه الفنون، بل كانت له شخصيّته الفنّية الخاصّة التي تقترح علينا أن نطلق عليه اسم "أدب السورة".

كان لـ "أدب السورة" الجديد مقوّماته الفنّية المختلفة، كما سوف نرى، من سبائك وتراكيب وألفاظٍ ومصطلحاتٍ وإيقاعاتٍ وسجعاتٍ (فواصل) وروابط لغويّةٍ وطرائق مستقلّةٍ في القراءة والتجويد.

**التميّز الفنيّ لفواتح السوَر:**

كان من جملة ما تميّز به هذا النوع الأدبي السماويّ الجديد، فيما امتاز به من خصائص استقلّ بها عن الفنون الأدبيّة الأرضيّة، فواتحُ سوَره.

لقد جاءت افتتاحيّات السور القرآنيّة مختلفةً تماماً عمّا عهده العرب، في الماضي وفي الحاضر، من افتتاحيّات لمختلف فنونهم الأدبيّة، كالقصيدة والخطبة والرسالة والتوقيع والمقامة والمقالة والخاطرة والبحث والفصل من الكتاب.

وإذا أجرينا مسحاً لفواتح السور المائة والأربع عشرة التي يتألّف منها القرآن الكريم فسنجد معظمها، إن لم يكن كلها، مختلفاً تماماً عن أيّة فواتح معهودةٍ في أيّ فنٍّ من الفنون الأدبيّة المعروفة لدى العرب، وربّما غير العرب أيضاً.

ولو نظرنا في طبيعة هذه الفواتح، بادئين بالأكثر فالأقلّ تكراراً في القرآن، فسنجدها متدرّجةً حسب الترتيب التالي:

1 - هناك 29 سورةً تبدأ بحروفٍ محيِّرةٍ لم يعرف لها العرب تفسيراً مؤكّداً حتّى اليوم. والغريب أنّ 28 من هذه السوَر تحتلّ مكانها بين السوَر الخمسين الأولى من القرآن، أمّا السورة التاسعة والعشرون منها فتحتلّ الرقم (68) ثمّ تخلو بعدها بقيّة السوَر من هذه الفواتح.

2 - هناك 15 سورةً تبدأ بالقسَم.

3 - هناك 14 سورةً تبدأ بفعلٍ ماضٍ، ولكنّ 12 من هذه الأفعال الماضية تدلّ على الزمن الحاضر، وربّما المستقبل، وليس الماضي، وهو استعمالٌ نادرٌ وصعبٌ في لغتنا، كما نجد في سورة (النحل) مثلاً: ﴿أتى أمرُ الله﴾ أي سيأتي سريعاً، وفي سورة (الفرقان): ﴿تبارك﴾ أي هو مباركٌ. أمّا الفعل الثالث عشر فهو ماضٍ متعدٍّ ولكنّه، خلافاً للمعهود في لغتنا، لم يتعدّ في هذه الآية، ويَرد الفعل في سورة (المعارج): ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ﴾ فلا نجد للفعل (سأل) مفعولاً. والفعل الرابع عشر يأتي في صيغة الغائب ولكنّه، على غير المشهور

في لغتنا، جاء في معنى المخاطَب، وهو في سورة (عبس): ﴿عبسَ وتولّى﴾ والمعنى (عبستَ وتولّيت).

4 - هناك 10 سورٍ تبدأ بالنداء، وبصيغةٍ قرآنيّةٍ خاصّةٍ وثابتةٍ في السور جميعاً هي ﴿يا أيّها﴾، وهي تختلف عن صيغ النداء في لغتنا، بل عن صيغة النداء في الحديث الشريف أيضاً؛ إذ تكاد تقتصر فيه على (يا) أو (أيّها) منفردتين.

5 - هناك 7 سورٍ تبدأ بظرف المستقبل (إذا)، والغريب أنّ الحالات السبع جميعاً تنحصر في الربع الأخير من القرآن، وأوّلها سورة (الواقعة). ولكن التميّز فيها أن الظرف (إذا)، الذي اعتدنا في لغتنا أن يتضمّن دائماً معنى الشرط، لا يتضمّن هذا المعنى في فواتح السوَر بل ينحصر فيها بالدلالة على المستقبل: ﴿إذا وقعتِ الواقعة﴾، ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾، ﴿إذا السماءُ انفطرت﴾، ﴿إذا السماءُ انشقّت﴾ فلا وجود للشرط في هذه الفواتح، بل ربّما يتوجّه الظرف فيها إلى الحاضر، وأحياناً إلى الماضي، كما في سورة (المنافقون): ﴿إذا جاءكَ المنافقون﴾ فقد جاءه المنافقون حقاً قبل نزول الآية، وكما في سورة (النصر): ﴿إذا جاء نصر الله﴾ فقد تمّ النصر والفتح قبل نزول الآية.

6 - هناك 6 سورٍ تبدأ بالتسبيح والثناء على الله أو الأمر بهما (الحمد لله الذي -سبحان الذي أسرى- سبّح اسم ربّك) وهو أسلوب لم يعرفه العرب قبل الإسلام.

7 - هناك 5 سورٍ تبدأ بفعل الأمر المفرد (قُلْ).

8 - هناك 4 سورٍ تبدأ باسمٍ نكرةٍ (براءةٌ، سورةٌ، ويلٌ).

9 - هناك 4 سورٍ تبدأ بأداة التوكيد (إنّ) ولكن المتصلة بضمير الجمع (نا) الذي جاء بمعنى المفرد وهو الله تعالى، وهذه السوَر الأربع جميعاً تنحصر في السدس الأخير من القرآن، وأوّلها سورة (الفتح): ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.

10 - هناك 3 سورٍ تبدأ بآيةٍ مؤلّفةٍ من كلمةٍ واحدةٍ لا أكثر (الرحمن، الحاقّة، القارعة).

11 - هناك 3 سورٍ تبدأ بفعلٍ مضارع، ثابتٍ أو منفيّ، ولكنّه لا يختص في أيٍّ منها بالمستقبل؛ بل بالماضي المتصل بالحاضر (يسألونك، يسبّح، لم يكن).

12 - سورتان تبدآن بـ (لا) النافية (لا أقسم)، ولكنّ (لا) هنا مختلفةٌ عن (لا) النافية المعتادة في لغتنا، فهي هنا بمعنى (نعم) كما يرى كثيرٌ من المفسّرين.

13 - سورتان تبدآن بـ (قد) التحقيقيّة (قد أفلح، قد سمع) وليس هذا ممّا اعتادته العرب، إلاّ أن ترتبط باللام (لقد).

14 - سورتان تبدآن بالاستفهام المنفيّ (ألَمْ) مما لم تعتده فواتحنا البشريّة.

15 - سورتان تبدآن بحرف الاستفهام (هل)، ولكنّه لا يأتي للاستفهام بل للتأكيد، فهو فيهما بمعنى (قد): ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ﴾ - ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾، والمعنى (قد أتى).

16 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بمصدر: ﴿تنزيلُ الكتاب﴾.

17 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ باسمٍ موصولٍ ﴿الذين كفروا﴾.

18 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بـ (عمّ): ﴿عمّ يتساءلون﴾.

19 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بهمزة الاستفهام (أ): ﴿أرأيت الذي يكذّب بالدين﴾.

20 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بجارٍّ ومجرورٍ لم يُذكر متعلَّقهما ﴿لإيلاف﴾.

21 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بالبسملة، وهي فاتحة الكتاب.

والآن، هل اعتاد الكتّاب، في أيٍّ من الفنون الأدبيّة المعروفة، أن يبدأوا كتاباتهم بالقسَم مثلاً؟ أو بفعلٍ ماضٍ يأتي بمعنى المستقبل؟ أو بصيغة النداء (يا أيّها)؟ أو بالنكرة؟ أو بالأداة (قد)؟ أو بمصدر؟ أو باسمٍ موصول؟

وللإجابة عن هذا السؤال دعوني أتناول معكم أقرب كتابٍ إلى يدي على أرفف المكتبة. هذا هو الجزء الأوّل من كتاب "وحي القلم" لعبقريّة النثر العربيّ في القرن العشرين الأديب مصطفى صادق الرافعيّ. سنُجري الآن إحصاءً سريعاً للفواتح في مقالات الكتاب، وسنجد أنّ هذه الفواتح جاءت بالترتيب على الشكل التالي:

جاء في تاريخ الواقديّ - جاء يوم العيد - ما أشدّ حاجتنا - خرجتُ أشهد الطبيعة - كانت جلوةُ العروس كأنّها - إذا احتدم الصيف - ما أجمل الأرض - جاء في امتحان شهادة - اجتمع ليلة الأضحى خروفان - عصمت ابن فلان باشا طفلٌ - على عتبة البنك نام الغلام - كان فلانٌ ابن الأمير فلان - كانت هذه المرأة وضّاحة الوجه - كانت لها نفسٌ شاعرة - صاح المنادي في موسم الحجّ - قال رسول عبد الملك - ذهب الناس يميناً وشمالاً - جلس جماعة أصحاب الحديث - قال أبو معاوية الضرير - دخل أحمد بن أيمن - قال صاحبها وهو يحدّثني - كتبت إليّ سيّدةٌ فاضلة - هؤلاء ثلاثةٌ من الأدباء - قال الشابّ - أرملة الحكومة فيما تواضعنا عليه - قال أبو خالد الأحول الزاهد - فرغ أبو يحيى مالك بن دينار - أحبّها وأحبّته - لكأنّما والله قد تمدّد على سيف البحر - ترجمنا عن الشيطان قصيدة - كيف يُشعَب صَدعُ الحبّ - جلستُ على ساحل الشاطبيّ - جلست وقد مضى هزيعٌ من الليل - أفي الممكن هذا؟ - قالت لي صاحبة الجمال البائس.

يا تُرى كم من هذه الفواتح الخمس والثلاثين تلتقي مع فواتح القرآن الكريم؟ والحقيقة أنّه حتّى تلك التي يمكن أن نظنّ للوهلة الأولى أنّها متشابهة؛ فإنّها ليست كذلك.

فالفعل الماضي يدلّ على الزمن الماضي الحقيقيّ في جميع الحالات الستّ والعشرين من الأفعال الماضية في فواتح الرافعيّ، ولكنّه لم يكن كذلك في أيٍّ من حالاته الخمس عشرة في فواتح السور. ثمّ إنّ الحالة الوحيدة التي افتُتحت فيها مقالة الرافعي بهمزة الاستفهام جاء فيها الاستفهام حقيقياً "أفي الممكن هذا؟"؛ أو جاء على أبعد الأحوال للتعجّب، على حين جاءت الهمزة في الحالة الوحيدة لها في فواتح السور (أرأيت الذي يكذّب بالدين)

للإخبار وليس للاستفهام، أي: (دعني أخبرك بأمر الذي يكذّب بالدين)، وعلى هذا يمكن أن نقيس بقيّة الفواتح.

إنّ ظاهرة اختلاف الفواتح القرآنيّة عن فواتح أيّ فنٍّ أدبيٍّ بشريّ، هي جزءٌ من الظاهرة العامّة الكبرى التي تشمل لغة القرآن جملةً وتفصيلاً، وهي دليلٌ على أنّ هذه اللغة تختلف عن اللغة البشريّة على اختلاف أنواعها، بما فيها لغة الحديث النبويّ أيضاً.

## شخصيّة (السورة) القرآنيّة:

سبق أن عرفنا في المقدّمة أنّ القرآن الكريم قد استخدم الفعل الناقص (كان) بمعنى (إنّ). لقد تكرّر هذا الاستعمال الجديد في القرآن ما لا يقلّ عن 190 مرّة، ومع ذلك فلا وجود لهذا الفعل مطلقاً، بمعناه القرآنيّ الجديد، خارج الكتاب الكريم حتى اليوم، لا نستثني من ذلك حتّى الحديثَ الشريف!

ولكنّ نظام توزيع هذا الفعل على السوَر القرآنيّة أكثر إثارةً للدهشة. فأمرٌ عاديٌّ في سورةٍ لا تزيد على سطرين كسورة (الإخلاص) أن تكون حصّتها، من المرّات الـ 190 التي يتكرّر فيها الفعل، مرّةً واحدةً على الأقلّ، وذلك قولُه تعالى: (ولم يكن له كفواً أحد). إنّ الفعل المنفيّ هنا (لم يكن) يعني في الحقيقة: (لمْ ولا ولنْ يكون) فلا يقتصر معناه على الزمن الماضي وحده كما هو في استعمالاتنا البشريّة.

فماذا نتوقّع أن تكون حِصّةُ سورةٍ طويلة كالبقرة من هذا الفعل، وهي التي يقارب حجمها 1/ 12 من حجم القرآن بكامله؟ والجواب: لا شيء! فماذا عن السور الأخرى التي تليها طولاً؟ آل عمران مثلاً؟ لا شيء! والمائدة؟ لا شيء! والأنعام؟ والأعراف؟ والأنفال؟ والتوبة؟ لا شيء، لا شيء! وهكذا حتّى السورة السادسة عشرة؛ أي ما يقرب من نصف القرآن!! كلّ هذه السوَر تخلو تماماً من هذا الاستعمال القرآنيّ الجديد والغريب للفعل الناقص (كان).

ولكن، في وسط هذا السهل المنبسط الفسيح، الخالي من أيّ أثرٍ للفعل الجديد، تشرئبّ فجأةً قمّةٌ شاهقةٌ هي سورة (النساء)، وهي السورة الرابعة في

الترتيب بين هذه السوَر الطويلة، فيتكرّر فيها الفعل، وبشكلٍ حادٍّ وخارجٍ بشدّة عن القاعدة، 53 مرّة، ولكن ليختفي بعدها تماماً في السور الاثنتي عشرة التالية، ثمّ يتخّذ بعد ذلك نظاماً جديداً في ترتيب ظهوره، فيعود ليتكرّر في السورة رقم (17) وهي (الإسراء) على نحو مكثّف 27 مرّة، ثمّ يختفي على مدى سبع سورٍ تاليةٍ لتظهر بعدها قمّةٌ جديدةٌ عند السورة (25) وهي (الفرقان) فيتكرّر فيها 11 مرّة، ثمّ يعود فيختفي لسبع سورٍ أخرى حتّى يظهر في السورة (33) وهي (الأحزاب) 26 مرّةً، ثمّ يختفي تماماً ليتوالى ظهوره بعد حينٍ في بضع سوَرٍ متأخّرة، وهو ما يدعّم ما نذهب إليه في هذه الدراسة من أنّ لكلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم "سُوْرُها" المنيع الخاصّ، وشخصيّتها اللغويّة المستقلّة التي تميّزها عن السور الأخرى بحيث يصعب اختلاطُ آيات السور أو تَداخلُها بعضِها ببعض.

ولكنّ الأهمّ من ذلك، في هذه الظاهرة، أنّها بمثابة شهادةٍ توثيقيّةٍ لكلّ سورة تدعّم تسلسلها الحاليّ بين السوَر، وتنفي وقوع أيّ اضطرابٍ أو تعديلٍ بشريٍّ في هذا التسلسل كما هو بين أيدينا، وهو أمرٌ من شأنه أن يرجّح كفّة من قال بسماويّة هذا الترتيب، من ناحية، ويؤكّد استمراره على الزمن في الصّورة نفسها التي وُجد عليها في عهد النبوّة، من ناحيةٍ أخرى، خلافاً لادّعاءات بعض المستشرقين وتهويماتهم غير الموضوعيّة[2].

وقد يقول قائلٌ من هؤلاء المستشرقين، ممّن اعتادوا اتّهام الرسول ﷺ بوضع القرآن الكريم: بدهيٌّ أن يختلف أسلوب السور المدنيّة، وقد جاءت في مرحلةٍ متأخّرة، عن أسلوب السوَر المكّية، وقد جاءت في فترةٍ مبكّرةٍ من الدعوة، فكلّ إنسانٍ يتطوّر أسلوبه مع الزمن.

إنّ في احتواء سورة (النساء)، وهي مدنيّة، هذا العدد الكبير من الأداة

(2) هذا إذا طرحنا جانباً الدراسات الحاسوبيّة الكثيرة التي تصل إلينا بين الحين والآخر عبر الشبكات الإلكترونيّة، ويؤكّد أصحابها بالحسابات الرقميّة، وبعضهم بالخطوط البيانيّة، حتميّة وسماويّة التسلسل الحالي للسور وللآيات، بل حتميّة عدد السور في القرآن، ثمّ عدد الآيات في كلّ سورة.

(كان) القرآنيّة دون باقي السور المدنيّة قبلها وبعدها، ثمّ في وقوع سورةٍ مكّيةٍ ضخمةٍ بين هذه السوَر الطوال، وبحجم سورة (النساء) تقريباً، وهي سورة (الأنعام)[3] مع خلوّها تماماً من هذا الفعل القرآنيّ، هو خير ما تُردّ به هذه التهمة على أصحابها.

والشخصيّة اللغويّة للسوَر القرآنيّة، كلٌّ على حدة، ظاهرةٌ عجيبةٌ أخرى في القرآن، وهي جزءٌ من الهيكل العامّ للشخصيّة اللغويّة للكتاب الكريم. إنّ كلّ سورة، كما سيتبيّن لنا في دراستنا التفصيليّة للسور، تنفرد، مهما قصُرت، بعدة ألفاظٍ ليست في السوَر الأخرى، كما تنفرد بعلاقاتٍ لغويّةٍ جديدةٍ وسبائك وتركيباتٍ وأدواتٍ تقتصر عليها وحدها دون سائر السوَر، فضلاً عن خصوصيّة الإيقاع العامّ والفاصلة القرآنيّة اللذين ينتظمان كلّ سورة، فتكاد تستقلّ بهما عن معظم السوَر الأخرى.

فالتعبير (آياتٌ بيِّنات) على سبيل المثال يتكرّر في القرآن 8 مرّات، أمّا التعبير (آيات مُبيِّنات)، على تميّزه، فيتكرّر مرّتين فحسب ولكنّ المرّتين كلتيهما تردان في سورة (النور). والفعل (مزّق) تتكرّر مشتقّاته 4 مرّات، ولكنّها جميعاً تنحصر في سورة (سبأ) دون غيرها من السوَر، والأداة (حاشَ)، على تميّزها، نجدها مرّتين فحسب، وكلتا المرّتين في سورة (يوسف)، واللفظ (مستمرّ)، على تميّزه أيضاً، يرِد مرّتين كلتاهما في سورة (القمر)، ومشتقّات الجذر (طمث)، على تميّزها، نجدها مرّتين كلتاهما في سورة (الرحمن)، وصيَغ الفعل (استنكف)، على ندرة استعماله، ترد 3 مرّات كلّها في سورة (النساء)، والفعل (راغ)، مع تفرّده، يتكرّر 3 مرّات اثنتان منها في سورة (الصافّات) ويتعدّى في كلٍّ من المرّتين بحرفٍ مختلف ليحمل بذلك معنىً مختلفاً، "فراغَ إلى آلهتَهم (91) فراغَ عليهمْ ضَرْباً (93)"، والتعبير (عزيزٌ حكيمٌ) يرِد 13 مرّةً منها 5 في سورة (البقرة) و4 في (الأنفال)، ولكنّ الأغرب من ذلك أنّ هذا التعبير لا يتجاوز في القرآن سورة (لقمان: 31) إذ يختفي بعدها تماماً في باقي السوَر، والتعبير (وما اللهُ بغافلٍ عمّا تعملون) يرد

(3) باستثناء ثلاث آياتٍ منها قيل إنّها مدنيّةٌ في أرجح الأقوال.

6 مرّات 5 منها في السورة رقم 2 (وهي البقرة) ومرّة واحدة في السورة رقم 3 (آل عمران) ثمّ لا يتكرّر بعدها أبداً، والتعبير (إنّه هو التوّاب الرحيم) يرد مرّتين كلتاهما في سورة (البقرة)، ويتكرّر التعبير (العزيز الغفّار) 3 مرّات تتوزّع على السوَر المتتالية الثلاث: (ص: 38) و(الزُمَر: 39) و(غافر: 40)... وهذا كلّه غيضٌ من فيض.

ويكتشف لنا عبد الخالق عضيمة أنّ الأداة (كلّا) لا توجد إلّا في السوَر المكّية وفي النصف الثاني من القرآن الكريم، وأنّ 4 من أصل 5 ألفاظ رباعيّة أو خماسيّة الأصل يقتصر عليها القرآن قد اجتمعت في سورة (الإنسان) وهي (زمهرير، قمطرير، زنجبيل، سلسبيل) وأنّ كلّ أبنية الرباعيّ المجرّد جاءت في النصف الثاني من القرآن دون النصف الأوّل، باستثناء اللفظ (زخرف)[4] .

## هل تتداخل شخصيّات السوَر؟

كثيراً ما نشعر في أثناء استظهار بعض السور القصار منها بخاصّة، أنّنا نوشك أن ننزلق عن خطّ السورة فتتحوّل التلاوة بنا إلى سورةٍ أخرى تتّفق معها في حروف فاصلتها وإيقاعها، أو تتقارب أوزان بعض سبائكها، كما يمكن أن يحدث معنا مثلاً بين سورتي (المرسلات) و(النازعات) أو بين سورتي (التكوير) و(الانشقاق) أو بين (الأعلى) و(الليل).

ومثل هذا الانزلاق والخروج عن خطّ السورة قد يجعلنا نظنّ أنّه إنّما هو تداخلٌ في شخصيّتَي السورتين، وتَماهٍ للحدود بينهما إلى حدّ إمكان ذوبان إحداهما في الأخرى، فتسقط بذلك مقولتنا عن استقلال كلّ سورةٍ بشخصيّتها اللغويّة وتميّزها عن باقي السوَر.

## بين سورتيْ (الأعلى) و(الليل):

إنّ مقارنةً سريعةً بين أيّ زوجين من هذه السور ستبرهن لنا كيف تتباعد

(4) عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**. القاهرة: دار الحديث، 2004. ج4، ص5.

الشخصيّتان اللغويّتان للسورتين فلا تكادان تلتقيان حتّى في عبارةٍ واحدة.

ولنتوقّف على سبيل المثال عند سورتَي (الأعلى) و(الليل) لنرصد جانباً واحداً من المساحة اللغويّة لهذا الثنائيّ، هو جانب التراكيب والتعبيرات، لنتبيّن من خلاله إلى أيّ مدىً تتشابه أو تتباين الشخصيّتان اللغويّتان للسورتين، على تداخل الخطوط الإيقاعيّة بينهما كما ذكرنا.

إنّ كلتا السورتين تأتي في ثمانية أسطر، وتتكوّن الأولى من 72 كلمة والثانية من 71 كلمة. ومع وحدة الفاصلة بينهما؛ إذ تنتهي فيهما دائماً بالألف، وتكون على وزن (فعْلَى) غالباً، ومع اشتراكهما في بضعة ألفاظٍ قليلةٍ مثل (خلقَ - الأشقى - يَصلَى - الآخرة - ربّه - الأعلى) فإنّهما لا تشتركان في أيّ تعبيرٍ أو تركيب، فلكلٍّ منهما تعبيراتها وتراكيبها المستقلّة والمختلفة تماماً عن السورة الأخرى مع وفرة عدد هذه التعبيرات والتراكيب في كلّ سورة.

والأغرب من ذلك، بل الأكثر إعجازاً، هو أنّ معظم التراكيب والتعبيرات التي تتكوّن منها أيٌّ من السورتين تقتصر على هذه السورة فلا تشاركها فيها أيّة سورةٍ أخرى في القرآن الكريم.

فبين 26 تركيباً أو تعبيراً هي قوام سورة (الأعلى) يمكن أن نعثر على ما لا يزيد على أربعةٍ منها في سورٍ أخرى من القرآن وهي (خَلَقَ فسوَّى - إلّا ما شاءَ اللهُ - فذَكِّرْ - ولا يَحْيَى) على حين يظلّ 22 منها؛ أي ما يزيد على 80% من التراكيب والتعبيرات، مختصّاً بهذه السورة وحدها فلا يتكرّر في القرآن أبداً.

وهكذا فإنّك لن تجد أيّاً من التراكيب والتعبيرات الآتية من سورة (الأعلى) في أيّة سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم، ولا في سورة (الليل):

1 - ﴿سَبِّحِ اسمَ﴾

2 - ﴿ربِّكَ الأعلى﴾

3 - ﴿قدَّرَ فهَدى﴾

4 - ﴿أخرجَ المرعى﴾

5 - ﴿غُثاءً أحْوَى﴾

6 - ﴿سنُقرِئُكَ﴾

7 - ﴿فلا تَنسَى﴾

8 - ﴿يَعلمُ الجَهْرَ وما يَخْفَى﴾

9 - ﴿ونُيسّرُكَ لليُسرَى﴾

10 - ﴿إنْ نَفعَتِ الذّكرَى﴾

11 - ﴿سيَذّكّرُ مَن يخشَى﴾

12 - ﴿ويتجنّبُها الأشقى﴾

13 - ﴿يَصْلَى النارَ﴾

14 - ﴿النارَ الكبرَى﴾

15 - ﴿ثمّ لا يموتُ﴾

16 - ﴿أفلَحَ مَن تَزَكَّى﴾

17 - ﴿وذَكَرَ اسمَ ربِّه﴾

18 - ﴿فصَلَّى﴾

19 - ﴿بل تُؤْثِرون الحياةَ﴾

20 - ﴿والآخرةُ خيرٌ وأبْقَى﴾

21 - ﴿لَفي الصُّحُفِ الأُولى﴾

22 - ﴿صُحُفِ إبراهيمَ وموسى﴾

أمّا في سورة (الليل) فبين 25 تركيباً وتعبيراً، هي قوام السورة، يمكن أن نعثر على ثلاثة تعبيرات فحسب تشارك فيها سوَراً أخرى من القرآن الكريم، وهي: (فأنذرتُكم - كذّبَ وتولّى - إلّا ابتغاءَ) ثمّ تنفرد بـ (22) تركيباً أو



obeikan.com

تعبيراً تشكّل 88% من تراكيب وتعبيرات السورة، فلا تشاركها فيها أيّة سورةٍ أخرى، ولا سورة (الأعلى).

وعلى هذا فلن تجد أيّاً من التراكيب والتعبيرات القرآنيّة التالية إلّا في سورة (الليل) وحدها:

1 - ﴿والليلِ إذا يَغشَى﴾

2 - ﴿والنّهارِ إذا تَجلَّى﴾

3 - ﴿وما خَلقَ الذّكرَ والأنثى﴾

4 - ﴿إنّ سعيَكمْ لَشتَّى﴾

5 - ﴿أعطَى واتّقى﴾

6 - ﴿صَدّقَ بالحُسْنَى﴾

7 - ﴿فسنُيسِّرُهُ لليُسرى﴾

8 - ﴿بَخِلَ واستَغنَى﴾

9 - ﴿كَذَّبَ بالحُسْنَى﴾

10 - ﴿فسنُيسّرُهُ للعُسرَى﴾

11 - ﴿وما يُغْني عنه مالُهُ﴾

12 - ﴿إذا تَرَدَّى﴾

13 - ﴿إنّ علينا لَلهُدى﴾

14 - ﴿وإنّ لنا للآخرةَ﴾

15 - ﴿ناراً تَلَظَّى﴾

16 - ﴿لا يَصْلاها إلّا الأشْقَى﴾

17 - ﴿وسيُجَنَّبُها الأتقَى﴾

18 - ﴿يُؤتي مالَهُ يتزكّى﴾



obeikan.com

19 - ﴿وما لأحدٍ عندَهُ﴾

20 - ﴿نِعمةٍ تُجزَى﴾

21 - ﴿وجهِ ربِّه الأعلى﴾

22 - ﴿ولَسوف يَرضَى﴾

**شموليّة الآية القرآنيّة:**

وهناك جانبٌ هامٌّ آخر في الشخصيّة القرآنيّة لن أقف عنده في هذه الدراسة لما فيه من مزالق لغويّةٍ ونقديّةٍ كثيرةٍ وعدت نفسي أن أتجنّبها وأنا أخوض هذه التجربة الصعبة. وقد سبق إلى الكشف عن هذا الجانب الشيخ محمّد الغزالي في كتاب "كيف نتعامل مع القرآن" وفصّل القول فيما يمكن أن نطلق عليه (شموليّة الآية القرآنيّة) وتداخُلَ المحاور الفكريّة فيها تداخلاً لم يحدث قبل القرآن ولن يحدث بعده. يقول الغزالي:

القرآن ليس كتاباً فنّياً مقسّماً على قضايا معيّنةٍ ثمّ تنقطع فيه الرؤية الشاملة، بل هو يعرض الكون وهو يبني العقيدة، ويعرض الكون وهو يربّي الخَلق، ويمزج بين الجميع بطريقةٍ مدهشة. فالنظر إلى الكون والواقع والتاريخ يقود إلى الإيمان، ويؤصّل التوحيد، ويبني الخُلُق. فقوله تعالى:

﴿يا أيّها الناسُ اعبُدوا ربَّكم﴾

توحيدٌ فيه أمرٌ للناس بالعودة إلى الله، لكنْ:

﴿..الذي خَلَقَكمْ والذين مِن قبلِكمْ لعلّكمْ تتّقون. الذي جَعلَ لكمُ الأرضَ فِراشاً والسماءَ بِناءً وأَنزَلَ مِنَ السماءِ ماءً فأَخرَجَ به مِنَ الثمراتِ رِزقاً لكمْ فلا تَجعَلوا للهِ أنداداً وأنتُمْ تَعْلَمون﴾ [البقرة: 21-22].

انظر إلى طريقة القرآن: كيف عرض الكون، ومظاهره، وحقائقه، وهو ينفي الشركاء ويؤسّس عقيدة التوحيد. وهذا في المدينة.. كذلك نجد المسلك نفسه في مكّة:

﴿اللهُ الذي جَعلَ لكمُ الليلَ لتَسكُنوا فيه والنهارَ مُبْصِراً إنّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ

على الناسِ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَشكرون. ذلكمُ اللهُ ربُّكمْ خالِقُ كلِّ شيءٍ لا إلهَ إلّا هوَ فأنّى تُؤفَكون. كذلكَ يُؤفَكُ الذين كانوا بآياتِ اللهِ يَجحَدون﴾ [غافر: 61-63].

فالمحاور التي يقوم عليها القرآن الكريم.. ليست مقسّمةً على أساس أنّ هذا المحور لكذا، وذاك المحور لكذا، ولكن نحن بجهدنا العقليّ نجيء لآيةٍ واحدة، أو لطائفةٍ من الآيات يمكن أن تكون في قضيّةٍ واحدة، فنرى أنّ هذه القضيّة الواحدة تماسكت الآيات فيها على عدّة محاور: من الكلام عن الله، والكون، والجزاء، والنفس البشريّة، والإيمان، والأخلاق، تماسكاً غريباً لا يُعرف إلّا في هذا القرآن[5].

## التخوّف من التصريح بجِدّة اللغة القرآنيّة:

لقد وقف المفسّرون والأدباء والنقّاد متخوّفين قروناً عديدةٍ من الإعلان عمّا في نفوسهم من يقينٍ بأنّ القرآن قد أتى "بلغةٍ جديدة". ومن تجرّأ منهم فصرّح بذلك توقّف عند هذا التصريح فلم يحاول الخوض في الحديث عن اللغة الجديدة وتحليلها وإثبات وجودها، وربّما كان أحدُ الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك خوفَهم من أن يتعرّضوا لألسنة اللغويّين والنحويّين، ولا سيّما أنّ كثيراً من هؤلاء الأخيرين كانت قد انطبعت أخلاقهم، للأسف، بقواعد النحو الصارمة المتشدّدة، فتعاملوا مع الآخرين بمثل هذا التشدّد والتطرّف.

كان خوفهم من هذه الألسنة القاسية، وقلقهم من الاتّهام بأنّهم يدّعون خروج القرآن على لغة العرب، وكأنّه ليس عربيّاً، أقوى من شجاعتهم وحرصِهم على إثبات جِدّة لغته وإظهار ما أحدثه من فتوحاتٍ لغويّةٍ باهرة. وكان يكفي من أحدهم أن يتجرّأ فيصرّح بوجود كلمةٍ جديدةٍ واحدةٍ في القرآن حتّى يصبح متّهماً بعلمه وبدينه.

واسمع معي ما ينقله مفسّرنا الجليل الشوكاني في (الفتح القدير) وهو

---

(5) الغزالي، محمد. **كيف نتعامل مع القرآن**. مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة. فرجينيا: المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، 1991. ص44-45.

يتحدّث عن معنى لفظ (الفاسقين) الذي ورد في الآية 26 من سورة (البقرة):

"وقد زعم ابن الأعرابيّ أنّه لم يُسمَع قطّ في كلام الجاهليّة ولا في شعرهم (فاسق) وهذا مردودٌ عليه، فقد حَكَى ذلك عن العرب، وأنّه من كلامهم، جماعةٌ من أئمّة اللغة، كابن فارس والجوهريّ وابن الأنباريّ وغيرهم"[6].

إنّه نوعٌ من المصادرة الفكريّة فرض نفسه، على نحو أو آخر، على النحويّين واللغويّين والمفسّرين المسلمين، فمنعوا أنفسهم، ومنعوا غيرهم، من متابعة الطريق حتّى النهاية لوضع نظريّةٍ كاملةٍ عن الثورة اللغويّة الجديدة التي أحدثها القرآن الكريم، والشخصيّة اللغويّة الجديدة التي تفرّد بها، فاكتفى العلماء بالتحدّث عن أنماطٍ ممّا سمّوه "الإعجاز البلاغيّ" و"إعجاز النظم" في القرآن، كما فعل القضاة النقّاد الثلاثة: الباقلّانيّ وعبد الجبّار والجرجانيّ رحمهم الله.

## الخلط بين (الإعجاز) و(البلاغة) عند العلماء:

ومع أنّ القاضي الباقلّاني (ت403هـ) يصرّح في كتابه الرائد "إعجاز القرآن"، في معرض ردّه على القائلين بالصَرفة، بأنّ لغة القرآن جديدةٌ لم يُسبق إليها من قبل "فلمّا لم يوجد في كلام مَن قبلَه مثلُه عُلِم أنّ ما ادّعاه القائلُ بالصَرفة ظاهرُ البطلان"[7] فإنّه يعود ليفَسّر هذه "الأسبقيّة" بأنّها أسبقيّة اجتماع "جمال" الألفاظ والتعبيرات فيه بكثافةٍ لم تُسبق، وليس، عنده، أسبقيّةَ اجتماع "جدّة" الألفاظ أو التعبيرات، كما كنّا نرجو له أن يقول، وهو يؤكّد ذلك مراراً وتكراراً في كتابه، ومن ذلك قوله معلّقاً على الآيات (37-39) من سورة (يس):

---

(6) الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. **فتح القدير: الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير**. القاهرة: دار الفكر، (د. ت.)، ج1 - ص57.

(7) الباقلّاني، القاضي أبو بكر محمّد بن الطيّب. **إعجاز القرآن**. تعليق وتخريج: صلاح بن عويضة. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2001، ص25.

"ثمّ تأمّل قولَه: ﴿وآيةٌ لهمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا همْ مظلمون. والشمسُ تجري لِمُستَقَرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيزِ العليم. والقمرَ قَدّرناه مَنازِلَ حتّى عادَ كالعُرجونِ القديم﴾. هل تجدُ كلَّ لفظةٍ وهل تعلمُ كلَّ كلمةٍ تستقلُّ بالاشتمال على نهاية البديع، وتتضمّنُ شرطَ القولِ البليغ؟ فإذا كانت الآيةُ تنتظمُ من البديع، وتتألّف من البلاغات، فكيف لا تَفوتُ حدَّ المعهود، ولا تجُوزُ شأوَ المألوف؟ وكيف لا تجُوزُ قصَبَ السبْق، ولا تتعالى عن كلام الخَلق؟"[8].

"والأغرب من ذلك أن يعود الباقلّاني ليؤكّد في مكانٍ آخر من كتابه أن الإعجاز اللغويّ في القرآن هو في حقيقته "العجز" البشريّ عن فهم سرّ الإعجاز، ولو حدث أن اكتشفنا هذا "السرّ" فلن يعود الإعجاز إعجازاً:

وأمّا ما لا سبيلَ إليه بالتعلُّم والتعمُّل من البلاغات، فذلك هو الذي يدلّ على إعجازه.. وكلّ ما يمكن تعلُّمُه، ويُتهيّأ تلَقُّنُه، ويمكن تخليصُه، ويُستدرَك أخذُه، فلا يجب أن يُطلَب وقوعُ الإعجاز به"[9].

## نظريّة (النظم) عند الجرجاني:

أمّا القاضي عبد القاهر الجرجاني (ت471 أو 474هـ) فقد شغلت ذهنَه قضيّةُ (النظم) التي كان الباقلّاني قد سبقه إلى التنبيه إليها، بل أشار هذا الأخير إلى أنّ الجاحظ قبله قد "صنّف في نظم القرآن كتاباً".

ثمّ أنضج النظريّة من بعد القاضي الباقلّاني القاضي عبد الجبّار الأسدآبادي (ت415هـ) في كتابه "إعجاز القرآن" بتركيزه على العلاقات اللغويّة بين الألفاظ، حتّى تبنّاها الجرجاني في النهاية ليجعل منها محوراً لكتابه "دلائل الإعجاز" الذي طغت شهرته على شهرة كتاب الباقلّاني نفسه على أسبقيّة الأخير وريادته في هذا المجال، ومع أنّ الجرجاني لم يعدُ أن وقف عند قضيّة جمال النظم في القرآن، وليس جدّة هذا النظم التي ما فتئنا

(8) المرجع السابق، ص123.
(9) المرجع السابق، ص172 و178 .

نفتّش عنها، قبل هؤلاء وبعدهم، عند عباقرة الذين كتبوا في الإعجاز القرآني، ولكن من غير طائل.

ويحسن بنا أن نتوقّف مع الجرجاني عند قوله تعالى: ﴿وجَعلوا للهِ شُركاءَ الجِنَّ﴾ [الأنعام: 100] لنعرف من خلال هذا النموذج السريع توجّهاته النقديّة وهو يحاول الإمساك بأسرار الإعجاز القرآنيّ:

"ليس بخافٍ أنّ لتقديم (الشركاء) حُسناً وروعةً ومأخذاً من القلوب أنتَ لا تجدُ شيئاً منه إن أنت أخّرتَ فقلت: (وجعلوا الجِنَّ شركاءَ لله)، وأنّك تَرى حالَكَ حالَ مَن نُقِل عن الصورة المبهِجة، والمنظر الرائق، والحُسن الباهر، إلى الشيء الغُفْل الذي لا تَحْلَى منه بكثيرِ طائل، ولا تَصيرُ النفسُ به إلى حاصل. والسبب في أنْ كان ذلك كذلك؛ هو أنّ للتقديم فائدةً شريفة، ومعنىً جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير. بيانُه أنّا، وإنْ كنّا نرى جملةَ المعنى ومحصولَه أنّهم جَعلوا الجِنَّ شركاءَ، وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يَحصُل مع التأخير حصولَه مع التقديم، فإنّ تقديم (الشركاء) يُفيد هذا المعنى، ويُفيد معه معنىً آخر، وهو أنّه ما كان ينبغي أن يكون له شريكٌ، لا من الجِنّ ولا غير الجنّ. وإذا أُخّر فقيل: (جعلوا الجنّ شركاءَ لله) لم يُفِدْ ذلك، ولم يكنْ فيه شيءٌ أكثرَ من الإخبار عنهم بأنّهم عَبدوا الجنَّ مع الله تعالى، فأمّا إنكار أن يُعبَد مع الله غيرُه، وأنْ يكون له شريكٌ من الجنّ وغيرِ الجنّ، فلا يكون في اللفظ، مع تأخير (الشركاء)، دليلٌ عليه"[10].

لقد كان معظم همّ الجرجاني في كتابه أن يثبت لنا "دقّة" التعبير القرآني، وقيمة التقديم والتأخير، والفصل والوصل، والإضمار والإظهار، والقطع والاستئناف، وغير ذلك من فنون البلاغة والفصاحة، في تحقيق هذه الدقّة وإقامة الفكرة القرآنيّة المطلوبة، مع المحافظة على جمال النظم والصياغة باستمرار، مهما اختلف موضوع الآية أو السورة. ولكنّ الجرجاني لم يحاول أبداً التوقّف عند "الجديد" في هذا النظم أو الصياغة أو الألفاظ في التعبير القرآنيّ.

---

(10) الجرجانيّ، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. مرجع سابق، ص286.

## لغةٌ عربيّةٌ ولغةٌ جديدةٌ معاً:

وينقل السيوطي لنا، مع ذلك، عدداً من الشهادات المتقدّمة من كبار اللغويّين والنقّاد الذين أدركوا، كما يجب أن نتوقّع، أنّ التجديد اللغويّ والأسلوبيّ هو أحد أهمّ الجوانب الإعجازيّة في القرآن، إن لم يكن أهمّها على الإطلاق. ومن هذه الشهادات الهامّة ما ينقله عن ابن سُراقة (ت415هـ) في قوله:

"اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرةً كلّها حكمةٌ وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عُشر معشاره:

فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة.

وقال آخرون: هو البيان والفصاحة.

وقال آخرون: هو الرصف والنظم.

وقال آخرون: هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، مع كون حروفه في كلامهم، ومعانيه في خطابهم، وألفاظِه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قَبيلٌ غير قبيلِ كلامهم، وجنسٌ آخر متميّزٌ عن أجناس خطابهم، حتّى إنّ من اقتصر على معانيه وغيّر حروفه أذهبَ رونقَه، ومن اقتصر على حروفه وغيّر معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغُ دلالةٍ على إعجازه"[11].

ومع هذه التصريحات الجريئة الكاشفة فإنّنا، على مدى قرونٍ من تاريخ مكتبتنا التراثيّة، نتعثّر هنا وهناك بالعديد من القصص الغريبة التي وضعها الوضّاعون للدفاع عن فكرة "أنّ القرآن لم يأتِ بلغةٍ جديدة" وكأنّما هي سُبّةٌ تلحق بكتاب الله تعالى أن يخالف أعراف العرب اللغويّة والنحويّة والبلاغيّة ويأتي فيها بجديدٍ لم يُسبق إليه! ويصل بعض هذه القصص في ضعفه إلى حدّ

(11) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص236.

التهافت، ويصل تفكير بعض من قَبِل هذه القصص أو صدّقها إلى حدّ السطحيّة والسذاجة.

وهذا النوع من الحصار الفكريّ لم يقتصر على جانب الإعجاز التجديديّ في القرآن، بل تجاوزه إلى جانبٍ لا يتحدّث أصحابه عادةً إلّا بلغة الأرقام، وهو جانب الإعجاز العلميّ، فانبرى بعض المتشدّدين ليوصد الباب أمام من يحاولون التحدّث عن أيّ سبقٍ علميٍّ للقرآن. ولم يقتصر هذا الموقف على معاصرينا من اللغويّين والنحويّين والعلماء، وإن لم يشملهم جميعاً، فهذا الخطّ المتشدّد يمتدّ عميقاً في تراثنا وعند بعض علمائنا، وعلى رأسهم الشاطبي الأندلسي (ت970هـ) الذي كان على رأس من هاجموا، منذ ذلك الوقت، التفسير العلميّ للقرآن الكريم.

إنّ من المؤكّد أنّ القرآن لم يأتِ بلغةٍ جديدةٍ منفصلةٍ عن اللغة العربيّة، وهذا موضع إعجازه، لأنّه نزل بالعربيّة وانطلق من قواعدها، ولكنّ تفرّده يأتي من تجاوز هذه اللغة والقفز فوق محدوديّة ألفاظها وتراكيبها وسبائكها وصورها وعلاقاتها اللغويّة، كما يأتي من تطوير أعرافها، ثمّ قواعدها، من غير إلغاء هذه القواعد، وفتحِ الباب أمامها للمزيد من التطوّر والغنى، ومنحِها أبعاداً وآفاقاً واسعةً لم يكن أصحاب هذه اللغة يحلمون بها أبداً.

إنّ إعجاز القرآن لا يكمن في إيجاد لغةٍ من لا شيء، وإلّا لانفصل بنفسه وبتعاليمه عن البشر، أيّاً كانت لغتهم، وإنّما في بناء لغةٍ جديدةٍ على أسس اللغة القديمة نفسها، والتحليق بعد ذلك في فضاءاتٍ واسعةٍ لم تعرفها أو تصل إليها اللغة التقليديّة.

ولطالما واجهتُ في أثناء محاضراتي في موضوع هذا البحث احتجاجاً من بعض الحضور على إطلاقي تعبير (لغة جديدة) على لغة القرآن، لأنّني أوهِم بهذا أنّها لغةٌ غير عربيّة، واقترحوا أن أجد بديلاً لهذا التعبير غير لفظ "لغة"، ولكنّ الإعجاز يكمن حقيقةً في هذا التناقض؛ التناقض بين حقيقة "أن تكون لغةً عربيّةً" وحقيقة أن تكون في الوقت نفسه "لغةً جديدةً". حقّاً قد يبدو هذا غير منطقيّ، ولكنّ منطق المعجزة هو ألّا تقوم على منطق، وإذا استندت المعجزة إلى المنطق توقّفت عن أن تكون معجزة.

الإعجاز لا قاعدة له، وحتّى يكون الإعجاز إعجازاً فلا بدّ أن يتجرّد من المقاييس والموازين والقواعد الإنسانيّة التقليديّة .لغة القرآن الكريم "لغةٌ عربيّةٌ" وهي أيضاً "لغةٌ جديدةٌ"، شاء منطقنا الإنسانيّ أم أبى. يقول الناقد الإنجليزيّ ميدلتون مري *Middleton Murry*: "إنّ إبداعَنا لعملٍ أدبيٍّ عظيم ليس في انتصار اللغة بل في الانتصار على اللغة"[12] وهذا ما حقّقته لغة القرآن الكريم في حركة تقاطعها الفذّة مع اللغة الجاهليّة، فكانت انتصاراً على اللغة من داخل اللغة نفسها. إنّه بتعبيرٍ آخر: انتصارٌ باللغة على اللغة.

## ظاهرتا التجويد والترتيل:

وإمعاناً في تأكيد خصوصيّة الشخصيّة اللغويّة الجديدة للقرآن الكريم ارتبط الوحي بما عُرف فيما بعد بـ (علم التجويد) وهو مجموعةٌ من قواعد القراءة الجديدة التي نزل بها الوحي والتي ظلّت خاصّةً بالقرآن وحده، بحيث تتميّز قراءته عن قراءة أيّ نصٍّ آخر، نثريٍّ أو شعريّ، بل عن قراءة الحديث الشريف أيضاً بما فيه الحديث القدسيّ.

إنّنا، مثلاً، نقرأ اللفظ (ويلٌ) في آية سورة (الهُمَزة): (ويلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة) هكذا: (وَيْلُلْ) ولكنّنا نقرأ اللفظ نفسه في الحديث الشّريف "ويلٌ للأعقابِ من النّار"، أو في أيّ حديثٍ أو نصٍّ بشريٍّ آخر، هكذا: (وَيْلُنْ). ونحن نقرأ اللفظ (فإنْ) في الآية (11) من سورة (النّساء): (فإنْ لم يكُنْ له ولدٌ) هكذا: (فإلْ) ولكنّنا نقرأ اللفظ نفسه في الحديث الشّريف "قالوا فإنْ لم يجِدْ.."، أو في أيّ حديثٍ أو نصٍّ بشريٍّ آخر، بالنون: (فإنْ) .. وهكذا تستطيع أن تميّز فيما تسمعه بين ما هو قرآنٌ وما ليس بقرآن، بغضّ النظر عن مستوى ثقافتك ومعرفتك بأسلوب القرآن أو قواعد تجويده.

ولا بدّ من التنبيه إلى أنّ أوائل من وضعوا علم التجويد، وكان ذلك في مرحلةٍ متأخّرة من القرن الهجريّ الأوّل، قد مزجوا فيه بين ما هو خاصٌّ

(12) Murry, John Middleton. *The Problem of Style*. Oxford: Oxford University Press, 1960. p. 101.

بالقرآن الكريم وحده لا يشاركه فيه أيّ كتابٍ أو نصٍّ بشريّ، عربيٍّ أو غير عربيّ، وما هو مجرّد ظواهر لسانيّةٍ عربيّةٍ أو بشريّةٍ معروفةٍ في معظم اللغات.

فأن نلفظ (ارْكبْ معَنا) هكذا (ارْكمْ معَنا) وأن نلفظ (خَيْراً يَرَهْ) هكذا (خَيْرَيْ يَرَهْ) وأن نلفظ (سَمِيعٌ بَصِيرٌ) هكذا (سَمِيعُمْ بَصِيرٌ) أمرٌ يختصّ بالقرآن، وبالقرآن وحده، وهو، مع ما يدخل تحت بابه من قواعد، يمثّل الجوهر الحقيقيّ لعلم التجويد، أمّا أن نلفظ (قدْ تَبَيَّنَ) هكذا (قتْ تَبَيَّنَ) وأن نلفظ (فآمنَتْ طائفةٌ) هكذا (فآمنَطْ طائفةٌ) وأن نلفظ (أثْقَلَتْ دَعَوا) هكذا (أثْقَلَدْ دَعَوا) فهذه من الظواهر اللغويّة العامّة التي تشمل اللسان العربيّ كلّه، بل تشاركه فيها لغاتٌ بشريّةٌ أخرى. ولا شكّ في أنّ فصل هذه الظواهر عن علم التجويد من شأنه أن يحفظ لهذا العلم خصوصيّته المتفرّدة واقتصاره على القرآن الكريم وحده، فلا يشاركه فيها أيّ نصٍّ لغويٍّ بشريّ، عربيٍّ أو غير عربيّ، على الإطلاق.

ولم تكن قواعد علم التجويد هي وحدها الضابط لقراءتنا للقرآن الكريم، إذ لا بدّ أن يلازمها السماع أيضاً. فقواعد التجويد، على سعتها، وفي عصرٍ لم يعرف الإنسانُ فيه آلة التسجيل الصوتيّة، لم يكن لها أن تحيط بدقائق النطق القرآنيّ التي تختصّ بالقرآن وحده دون غيره من النصوص، النبويّة أو الإنسانيّة على السواء، ولا بدّ إذن، حتّى يكون النقل غايةً في الأمانة، من أن يسمعه التلميذ عن شيخه، وهذا عن شيوخه، وهكذا حتى تصل السلسلة إلى رسول الله ﷺ، وهو أمرٌ لم يتكرّر، ولا يمكن أن يتكرّر، في أيّ كتابٍ آخر.

وفوق كلّ هذا وذاك؛ لم يعرف العرب لنثرهم لحناً ولا «ترتيلاً». لقد ظلّ الشعر عندهم مستأثراً بهذه الصفة الإنشاديّة أو الغنائيّة أو التقطيعيّة، حتّى جاء القرآن وجاءت معه الأوامر الإلهيّة التي تحدّد للمسلمين طريقة قراءته مقطّعاً ﴿ورتِّلِ القرآنَ ترتيلا﴾ [المزّمّل: 4] وجاءت بعد ذلك الأوامر النبويّة الموضّحة لطبيعة هذه القراءة: «إنّ هذا القرآنَ نَزل بحُزنٍ، فإذا قرأتموهُ فابكُوا، فإن لم

تَبكُوا فتباكَوا، وتَغنَّوا به، فمن لم يتغنَّ به فليس منّا»[13] .«اقرأوا القرآنَ بالحُزْن فإنّه نزلَ بالحُزن»[14] .«زيِّنوا القرآنَ بأصواتِكم»[15] .«ما أَذِنَ اللهُ - أي سمع - لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنّى بالقرآنِ يَجهرُ به»[16] .

## الإيقاع والفاصلة القرآنيّة:

يجب أن أعترف بأنّني كثيراً ما وجدتُني أدافع فكرةً طالما تردّدت في نفسي، وهي دراسة الموسيقا الجديدة للقرآن. إنّها من غير شكٍّ موسيقا متميّزةٌ ومتفرّدةٌ لم يعرفها العرب في نثرهم أو في شعرهم من قبل.

ولقد كنت دائماً من الذين استهوتهم دراسة هذا الجانب الفنّيّ في معظم دراساتي الأدبيّة والنقديّة، ولكنّني كنت هنا أقاوم هذه الرغبة باستمرار، لأنّني شعرت أنّها ستخرج بي عن الإطار العامّ للدراسة الذي أخذت نفسي به، وهو الإطار الموضوعيّ الذي ينطلق من لغة الأرقام، ويستند إلى مادّةٍ علميّةٍ هي التي تزوّدنا بهذه الأرقام، أمّا الموسيقا فتظلّ مادّةً هلاميّةً زئبقيّةً يصعب أن تمسك بأطرافها، ومهما حاولنا ضبط حدودها في أُطرٍ علميّةٍ فسوف تفلت من بين أصابعنا وتخرج بنا إلى عوالم الذوق والإحساس واستشعار الجمال، وهي عوالم غير موضوعيّةٍ ولا تخضع لقواعد أو قوانين ثابتةٍ وقطعيّة. إنّه من شبه المستحيل أن تبلّ قدميك في بحر الموسيقا اللغويّة من غير أن تغرق.

فإذا تعسّفنا الطُرق وحاولنا أن نفرض على الموسيقا مثل هذه القوانين، كان علينا أن نمزّقها أوّلاً ونقطّع أوصالها على مشرحة مخابرنا؛ أي أن نقتلها

---

(13) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)**، تحقيق: مصطفى البغا، بيروت: دار اليمامة، 1407هـ، ج6، ص2743. وانظر أيضاً: القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص545.

(14) القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجة**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج1، ص424.

(15) الطبراني، سليمان بن أحمد. **المعجم الأوسط**. تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني، القاهرة: دار الحرمين، 1415هـ، ج3، ص193.

(16) الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج1، ص761 .

ونحلّل جزئيّات جسدها الرقيق من أجل الوصول إلى حقائقها، فينقلب الفنّ بين أيدينا إلى علم، وتضيع، من ثمّ، تلك الجوانب الجماليّة التي نسعى إلى إثباتها ووضع اليد عليها في هذا الفنّ. إنّنا بمعنىً آخر سنفقد الجمال في اللحظة التي نعثر فيها عليه[17].

وكان هذا هو السبب نفسه الذي شعرت دائماً بأنّه يدفعني بعيداً عن دراسة ما اصطُلح على تسميته "الفاصلة" في القرآن، وهي ما يقابل "السجعة" في النثر و"القافية" في الشعر، مع أنّها تمثّل جانباً شديد الأهميّة والتميّز في الكتاب العزيز[18].

والفاصلة القرآنيّة لها قواعدها المتفرّدة والمختلفة تماماً عن السجعة في النثر أو القافية والرويّ في الشعر، ولها دلالاتها المتبدّلة مع تبدّلها. إنّها ليست مجرّد سجعةٍ تجميليّةٍ تُقصد لذاتها، بل لها غاياتٌ أبعد من ذلك، ويميّزها عن السجع والقافية خصائص عديدةٌ أهمّها:

1 - يلتزم القرآن الفاصلة في نهاية الآية مهما طالت هذه الآية، وقد تصل إلى صفحةٍ كاملة، على حين التُزمت السجعة في الكتابات العربيّة، قبل نزول القرآن وبعده، في الجمل القصيرة التي لا تتجاوز، مهما طالت، بضع كلمات.

2 - معظم فواصل القرآن تأتي ممدودة النهاية (عظيم، قدير، يسبحون، العالَمين، المبين، بمجنون، المحسنين، رحيما، سبيلا، غرورا..) وكثيرٌ من هذا الممدود ينتهي بالنون أو بحرفٍ منوّن، وقد فسّر الزركشيّ ذلك بقوله: "كثُر في القرآن الكريم ختمُ كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المدّ واللِّين

---

(17) هذا ينطبق أيضاً إلى حدٍّ كبيرٍ على تحليل البلاغيّين للصورة الفنّية، فنحن نفقد الإحساس بجمال الصورة حال تحليلها إلى مشبّهٍ ومشبّهٍ به ووجه شَبهٍ وأداة تشبيه، ممّا فصّلت الحديث عنه في كتابي "الصورة بين البلاغة والنقد": ساعي، أحمد بسام. **الصورة بين البلاغة والنقد**. جدّة: دار المنارة، 1984.

(18) تفاوت تعريف الفاصلة عند البلاغيّين والنقّاد، فاقتصرت عند بعضهم على الحرف الأخير من الآية، وتمطّت عند آخرين حتّى شملت الآية بكاملها، كما تداخلت عندهم، قديماً وحديثاً، تعريفات كلٍّ من الفاصلة والرويّ والسجعة.

وإلحاق النون، وحِكمتُه وجود التمكّن من التطريب في ذلك"[19] .

3 - تلتزم معظم السور فاصلةً/ سجعةً أساسيّةً واحدةً تبدأ بها عادةً، وقد تنتقل بعد ذلك إلى فاصلةٍ أخرى مختلفة، أو أكثر من فاصلة، ولكن مع العودة باستمرار إلى القافية الأساسيّة الأولى التي تنتظم السورة بأكملها.

ومع خروج سورةٍ طويلة، كسورة (البقرة) مثلاً، عن فاصلتها الموحّدة بين آنٍ وآخر، كانتقالها إلى فاصلة الراء المسبوقة بياء المدّ (ـير) في الآيات 106 و108 و109 و110 و120 و148 و270، وإلى فاصلة الباء المسبوقة بالألف (ـاب) في الآيات 165 و166 و196 و197 و202 و211 و212 و269، وإلى القاف المسبوقة بالألف (ـاق) في الآية 200، وإلى الراء المسبوقة بالألف (ـار) في الآية 201، وإلى الميم المسبوقة بالألف (ـام) في الآية 204، وإلى الدال المسبوقة بالألف (ـاد) في الآيات 205 و206 و207، مع كلّ هذا فإنّ السورة تعود باستمرار لتلتزم بالفاصلة العامّة التي بنيت عليها وهي المدّ بالواو أو الياء والمنتهي بالنون أو الميم غالباً (ـون، ـين، ـيم)، وأحياناً باللام (ـيل) أو الدال (ـود، ـيد)، وهو ما يجعل الفاصلة القرآنيّة، بهذا النوع من الالتزام، أقرب إلى القافية أو الرويّ في الشعر منها إلى السجعة في النثر، من غير أن يعني هذا انضواءها تحت أيٍّ من هذه الأنواع الثلاثة.

بل نذهب إلى الزعم بأن ما أطلقتْ عليه الشاعرة العراقيّة نازك الملائكة اسم (شعر التفعيلة) في كتابها "قضايا الشعر المعاصر" وفضّلتُ أن أطلق عليه اسم (شعر التوقيع) في كتابي "حركة الشعر الحديث" قد استعار نظام رويّه من هذا النظام القرآني، فاعتمد أكثر شعراء هذا النوع من الشعر رويّاً أساسيّاً واحداً يبدأون به قصائدهم، ثمّ لا يفتأون يتنقّلون ضمن القصيدة الواحدة بين

---

(19) الزّركشيّ، بدر الدّين محمّد بن بهادر. **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، 1958. ج1، ص68. ومن الممتع والمفيد حقّاً العودة إلى الإحصائيّات التي قدّمها محمّد الحسناوي لأنواع هذه الخواتم في كتابه القيّم.
- الحسناوي، محمّد. **الفاصلة في القرآن**. عمّان: دار عمّار، 2000، ص165-315.

أكثر من رويٍّ، مع العودة دائماً من جديدٍ إلى الرويّ الأساسيّ الذي بدأوا به قصيدتهم.

4 – الحرف ليس هو الركن الأساسيّ الذي تقوم عليه الفاصلة القرآنيّة، كما هو الأمر في السجع، وإنّما هي النغمة والوزن، فلا يكون للحرف في هذه الحال قيمةٌ تُذكر. وهكذا وجدنا الآيات الثلاث (200 و201 و202) من سورة (البقرة) تنتهي على التوالي بهذه المقاطع (ـلاق، ـنار، ساب) وهي كلّها على وزنٍ واحد وإيقاعٍ واحد، ولكنّها كما هو واضحٌ لا تنتهي بالحرف نفسه. وهكذا الآيات (213، 214، 215) التي تنتهي بكلماتٍ توحّدت أوزان وإيقاعات مقاطعها الأخيرة من غير أن تتّحد حروفها الأخيرة (مستقيم، قريب، عليم).

5 – لا تكون الفاصلة فاصلةً إلّا أن تُختتم بها الآية. لقد حاول عددٌ من المستشرقين إيهام أنفسهم وإيهامنا بأنّ آيات القرآن الكريم لم تتنزّل من السماء هكذا مقسّمةً كما هي بين أيدينا الآن، بل المسلمون هم الذين قاموا بتقسيمها على الشكل الذي نراه، فحيثما وجدوا في العبارة القرآنيّة كلمةً تصلح لأن تكون فاصلةً توقّفوا عندها وجعلوها خاتمةَ آيةٍ لتبدأ بعدها آيةٌ جديدة.

وفضلاً عن أن هذا الزعم تنقُضه شواهد تاريخيّةٌ عديدةٌ سجّلها لنا من أرّخوا لفترة الوحي؛ فإن النصّ القرآنيّ نفسه يدحض بطبيعته هذه الفكرة.

هذه سورة (الشعراء) مثلاً. لنقرأ فيها معاً الآية 49:

– ﴿قال آمنتُم له قبل أنْ آذَنَ لكمْ إنّه لَكبيرُكمُ الذي عَلّمكُمُ السِّحْرَ فلَسوف تَعْلمون لأُقَطّعَنَّ أيديَكمْ وأرجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعين﴾.

فلو أخذ المسلمون بقياسات هؤلاء لتوقّفوا عند اللفظ (تَعْلمون) ليجعلوا منه نهايةً للآية، ولتبدأ بعده آيةٌ جديدة. إنّ في هذا اللفظ كلّ مقوّمات الفواصل التي سبقت هذه الآية أو لحقتها (ساجدين، العالَمِين، هارون.. منقلبون، المؤمنين، مُتَّبَعون..).

وعلى العكس، نجد الآيتين 92 و93 من السورة نفسها قد انفصلتا إلى آيتين في موضعٍ كان يمكن أن يفرض علينا، تبعاً لقياساتنا البشريّة النحويّة، ضمّهما في آيةٍ واحدةٍ:

- ﴿وقِيلَ لهمْ أين ما كنتُمْ تَعبُدون. مِن دونِ الله هل يَنصرونكمْ أو يَنتصِرون﴾

ولنقرأ أيضاً الآيتين 6 و9 من سورة (الزُمَر):

- ﴿ألا للهِ الدِّينُ الخالصُ والذين اتَّخذوا مِن دونِه أولياءَ ما نَعبُدُهمْ إلّا لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفَى إنّ اللهَ يَحكُمُ بينَهمْ في ما همْ فيه يَختلفون إنّ اللهَ لا يَهدي مَن هو كاذبٌ كَفّار﴾.
- ﴿أَمّنْ هو قانِتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه قُلْ هل يَستوي الذين يعلمون والذين لا يَعلَمون إنّما يَتذكّرُ أُولُو الألباب﴾.

فلو كان الأمر كما ظنّوا لكان على المقسّمين أن يُنهوا الآية (6) عند اللفظ (يختلفون) والآية (9) عند (لا يعلمون). ففي اللفظين كلّ شروط الفاصلة القرآنيّة، فضلاً عن أنّ معظم آيات السورة تنتهي بفاصلةٍ تتوافق تماماً مع (يختلفون) و(يَعلمون) كالآيات (6 و7 و11 و12 و13 و15 و16 و22 و24 حتى 35. . ثمّ أكثر الآيات بعد ذلك)؛ إذ تُختتم بالألفاظ (تُصرفون، الصدور، الدِّين، المسلمين، عظيم، المُبين، فاتّقونِ، مُبِين، تَكسِبون، يَشعُرون، يَعْلمون، يتذكّرون، يتّقون. . إلخ).

وعلى العكس نجد الآية 14 في هذه السورة تُختتم باللفظ (دِيني) وهو يشكّل فاصلةً تخالف طبيعة الفواصل الأخرى في السورة، إذ لا ينتهي بحرفٍ مسبوقٍ بحرف مدٍّ كما في فواصل الآيات قبله وبعده:

- ﴿قُلِ اللهَ أعبُدُ مُخْلِصاً له دِيني (14)﴾

فلو أخذنا بطريقة المستشرقين لكان الأصحّ أن تُضمّ هذه الآية إلى الآية 15 بعدها لأنّها تُختتم بالفاصلة (المُبِين) التي ستبدو، تبعاً لقياساتهم، أكثر انسجاماً مع بقيّة فواصل السورة.

ولنقرأ الآيتين التاليتين من سورة (مريم) فهما تلخّصان بوضوح كلّ هذا الحديث:

- ﴿قُلْ مَن كان في الضّلالةِ فلْيَمْدُدْ له الرحمنُ مَدّاً حتّى إذا رأَوا ما يُوعَدون إمّا العذابَ وإمّا الساعةَ فسيَعْلمون مَن هوَ شَرٌّ مَكاناً وأضعفُ جُنْداً.

ويَزيدُ اللهُ الّذين اهتَدَوا هُدىً والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّكَ ثواباً وخيرٌ مَرَدّاً﴾

فلماذا لم تنته الآية الأولى عند اللفظ (مَدّا) لتبدأ بعدها آيةٌ جديدة، ثمّ لماذا لم تنته الآية الثانية كذلك عند اللفظ (هدى) إن كان المسلمون حقّاً هم الذين قسّموا الآيات، وهم الذين ذهبوا في تقسيمها هذا المذهب؟

والأمثلة القرآنيّة على ذلك أكثر من أن نحصيها هنا.

6 - لكلّ سورةٍ شخصيّتها الموسيقيّة التي تسهم الفاصلةُ إلى حدٍّ كبيرٍ في تكوينها وإعطائها ملامحَها التي تميّزها عن معظم السّوَر الأخرى. ومع تغيّر الفاصلة وتَحوّلها وتَلوُّنها ضمن السورة الواحدة، فإنّ عنصراً فنّياً ما، ليس هذا البحث موضعاً لدراسته أو محاولة اكتشافه ووضع اليد عليه، يظلّ محافظاً على الخطّ الإيقاعيّ العامّ الذي ينتظم السورة بكاملها.

ولو جرّبنا انتزاع آيةٍ من سورتها ووضْعَها مكان آيةٍ في سورةٍ أخرى، حتّى إن كان موضوع الآيتين واحداً، فسندرك للتوّ أنّ خللاً ما قد حدث للإيقاع العامّ للسّورة، وأنّه فقد التجانس الذي كان عليه قبل هذا التدخّل. وهذا ينطبق على معظم سور القرآن، ولا سيّما الطوال منها التي ينفرد كلٌّ منها بإيقاعه المختلف، على حين يمكن أن تشترك سورتان قصيرتان أو أكثر في إيقاعٍ واحد.

هاتان آيتان من سورة (طه) تتحدّثان عن انفلاق البحر بعصا موسى، ونجاتِه وقومه، وغرقِ فرعون وجنوده:

- ﴿ولقد أَوحَينا إلى موسى أنْ أَسْرِ بعباديْ فاضرِب لهمْ طريقاً في البحرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً ولا تَخشَى. فأَتْبَعَهمْ فِرعَونُ بجنودِه فغَشِيَهمْ من اليَمِّ ما غَشِيَهمْ﴾. [طه: 77-78]

وتلك ثلاث آياتٍ أخرى من سورة (البقرة) تتحدّث الثانية منها عن موضوع آيتي (طه) نفسه: انفلاق البحر ونجاة قوم موسى وغرق آل فرعون:

- ﴿وإذ نجّيناكم مِن آلِ فِرعَونَ يسومونَكُمْ سُوءَ العذابِ يُذَبّحون أبناءَكمْ

ويَستَحْيُون نساءَكمْ وفي ذلكُمْ بلاءٌ مِن ربِّكُمْ عظيم. وإذْ فَرَقْنا بكُمُ البحرَ فأنْجيناكُمْ وأغْرقْنا آلَ فِرعَونَ وأنتمْ تنظُرون. وإذ واعدْنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعدِه وأنتمْ ظالمون﴾. [البقرة: 49-51]

فلو أحللنا الآية الأولى من آيتي سورة (طه) محلّ الآية الثانية من آيات سورة (البقرة)، وكلتاهما تتحدّث عن واقعة الغرق نفسها، ثمّ قرأنا الآيات الثلاث من جديدٍ قراءةً مرتّلةً متأنّية، أدركنا بسهولةٍ تَمايُزَ الشخصيّة الإيقاعيّة للآية المستضافة عن الشخصيّة الإيقاعيّة للآيتين المُضيفتين. ولنقرأ الآيات الثلاث في وضعها المضطرب الجديد للتأكّد ممّا نقول:

وإذْ نـجّيناكمْ مِن آلِ فِرعَونَ يسومونَكُمْ سُوءَ العذابِ يُذَبّحون أبناءَكمْ ويَستَحْيُون نساءِكمْ وفي ذلكُمْ بلاءٌ مِن ربِّكُمْ عظيمٌ - ﴿ولقد أَوحَينا إلى موسى أنْ أَسْرِ بعبادِيْ فاضرِب لهمْ طريقاً في البحرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً ولا تَخشَى﴾- وإذْ واعدْنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعدِه وأنتمْ ظالمون

ولن أغوص في تحليل ما جرى للإيقاع بعد التغيير الذي طرأ على نظام الآيات، فلن أكون، لو فعلت، في مأمنٍ من الانزلاق الذي ما فتئت أتخوّفه وأحذّر منه، ولكنّني واثقٌ من أنّ القارئ سيدرك بسهولةٍ أنّ أمراً ما في منتصف النصّ قد خرج بقطار الإيقاع عن خطّه، فاضطربت حركته واختلّ توازنه.

لقد استوفى الأقدمون والمحدثون دراسة الفاصلة القرآنيّة، وأفردوا لها كتباً كاملةً أو أجزاءً من كتب، ومنهم الرمّانيّ والباقلّانيّ والطوفيّ وابن الصايغ والخَروبيّ والمخلّلاتي ومصطفى صادق الرافعيّ وإبراهيم أنيس ومحمّد المبارك وعائشة عبد الرحمن ومحمّد رجب البيّومي ومحمّد الحسناوي، ولكنّ معظم هؤلاء لم يَسلموا وهم يتحدّثون عن الفاصلة، ولا نتوقّع لهم أن يسلموا، من التكلّف وإصدار الأحكام الذوقيّة البعيدة عن الضوابط العلميّة، كما أنّهم لم يحيطوا بأسرار الفاصلة وقواعدها الشاملة التي يبدو أنّها ما تزال بعيدة المنال[20].

(20) أجمل محمّد الحسناوي، في كتابه المذكور، الحديث عن هذه الأبحاث بشكلٍ يغطّيها خير تغطية، وقدّم دراسةً إحصائيّةً ضافيةً لأنواع الفواصل في القرآن لم يُسبق إليها، =

إنّ من المهمّ أن نؤكّد قبل الانتقال إلى موضوعٍ آخر حقيقةَ التميّز المتفرّد لشخصيّة القرآن الكريم، كما رأينا وسوف نرى، بوصفه كتاباً، وحقيقةَ أنّه الكتاب الوحيد في تاريخ الكتب في العالم الذي ينفرد بخصائص عديدةٍ لم يشاركه بها أيّ كتابٍ آخر.

والمقارنة هنا ليست بين موضوعات الكتب أو أفكارها أو لغتها أو أساليبها، فكلّ كتابٍ ولا شكّ ينفرد بخصائص تميّزه عن باقي الكتب في هذه الجوانب، ولكنّني أتحدّث عن "جنس" الكتاب بوصفه كتاباً.

لو قارنتم مثلاً بين هذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن وأيّ كتابٍ آخر في مكتبتكم لما وجدتم ما يميّزه، بوصفه كتاباً، عن الكتب الأخرى، باستثناء مقارنته مع كتابٍ باللغة الإنكليزيّة فيمكن أن نقول آنذاك إنّ مّا يميّز أحد الكتابين عن الآخر أمران:

1 - أنّ الأوّل كُتب بالعربيّة والثاني بالإنكليزيّة،

2 - وأنّ الأوّل يُقرأ من اليمين إلى اليسار والآخر يُقرأ من اليسار إلى اليمين.

هذا هو كلّ الفرق بين الكتابين، ولكن مع الانتباه إلى أنّ أيّاً من الكتابين لا يختصّ بهذه الصفة دون سائر الكتب، لأنّ هناك ملايين الكتب التي كُتبت بالعربيّة غير كتابي، وهناك ملايين الكتب التي كُتبت بالإنكليزيّة غير ذلك الكتاب، وأنّ كلّ الكتب العربيّة تُقرأ من اليمين إلى اليسار، وكلّ الكتب الإنكليزيّة تُقرأ من اليسار إلى اليمين.

وإذن لا يختصّ أيٌّ من هذين الكتابين، بوصفهما كتابين، بأيّة خصوصيّةٍ ينفرد بها دون بقيّة الكتب.

---

= ولكنّه لم يَسلم هو أيضاً، كما يُفترض أن نتوقّع، من التكلّف وإصدار الأحكام الذاتيّة والذوقيّة في أثناء تقويمه الجماليّ للفواصل وخصائصها الإيقاعيّة والموسيقيّة، مع محاولاته المخلصة والجادّة لتفادي تلك المزالق، وهي مزالق محتومةٌ على من يخوض مثل هذه الكيميائيّة المعقّدة. انظر:
- الحسناوي، محمد. **الفاصلة في القرآن**. عمان: دار عمار، 2000.

## الخصائص العشرون للكتاب الكريم:

ومن هذا المنطلق نجد أنّ للقرآن الكريم خصائص لم يشاركه فيها أيُّ كتابٍ آخر، قبله أو بعده. ومع أنّ بإمكاننا أن نحصي عشراتٍ من هذه الخصائص التي ينفرد بها القرآن وحده، فإنّنا، أخذاً بمنهجنا العلميّ، سنكتفي هنا بالحديث عن تلك التي لا يستطيع أن يجادل فيها اثنان، والتي لم، ولا، ولن يشارك فيها القرآنَ أيُّ كتابٍ آخر على مرّ الدهور. وقد أحصينا منها هذه الخصائص العشرين:

### 1 - التسميات الخاصّة:

لم يكن للعرب قبل تنزّل الوحي كتابٌ يعودون إليه ليستعيروا منه مصطلحاتٍ تقنيّةً لخدمة هذا الفنّ الجديد الذي طرأ عليهم بنزول القرآن الكريم وسمعوا به أوّل مرّة: صناعة الكتب.

كان الكتاب المقدّس، ببعديه: التوراة والإنجيل، هو الكتاب الوحيد المعروف للعرب في جزيرتهم حتّى نزول القرآن الكريم، مع الأخذ بالحسبان أنّه لم يكن قد تمّت ترجمته بعدُ إلى اللغة العربيّة، ومن ثمّ، لم تكن المصطلحات التي تسمّى بها فقراته وفصوله وأبوابه، التي تتداولها الترجمات العربيّة اليوم، كالسِّفر والأصحاح والأعمال والرسائل مثلاً، بين أيدي اليهود أو المسيحيّين العرب في فترة تنزّل القرآن، وظلّت عباراته أو جُمله أو فقراته بعد ترجمته إلى العربيّة، إلى الآن، من غير تسميةٍ معروفةٍ خاصّةٍ به، وإن كان بعض الدارسين اليوم يستعير لها أحياناً التسمية القرآنيّة (الآية).

في مثل هذه الأجواء نزل القرآن الكريم يحمل بين دفّتيه منذ البداية، وقبل زمنٍ طويلٍ من اكتماله كتاباً تاماً، تسمياتِه الخاصّة، كما سبق أن قدّمنا، والتي لم ولن يشاركه بها كتابٌ آخر، وذلك بدءاً من اسمه الخاصّ والجديد تماماً على اللغة العربيّة (القرآن)، وقد أضاف إليه المسلمون فيما بعد اسم (المُصْحَف) اشتقاقاً من "الصُحُف" التي يضمّها بين جنبيه، أو مِن "تصحُّف" المسلمين لهذه الصحف - ومروراً بمصطلح (السورة) الذي أطلقه القرآن على

ما يسمّونه اليوم (الباب) أو (الفصل) في النثر، و(القصيدة) في الشعر، ثمّ بمصطلح (الآية) لتسمية ما نطلق عليه (الجُملة) أو (الفِقرة) أو (العبارة) في النثر، و(البيت) في الشعر، وكذلك مصطلح (السبع المثاني) أو ما أطلق عليه الرسول ﷺ اسم (الفاتحة) وهو يقابل ما نعرفه اليوم باسم (المقدّمة) أو (المدخل)، وانتهاءً بمصطلحَي (التِلاوة) و(الترتيل) مقابل ما اعتاد العرب أن يطلقوا عليه لفظ (القراءة) في النثر و(الإنشاد) في الشعر. ثم كان أن أوجد له العلماء المسلمون مصطلح (الفاصلة) ليقابل (السجعة) في النثر، و(القافية) في الشعر.

إنّ معظم هذه التسميات "التقنيّة" هي، كما نرى، ممّا نزلت به ونصّت عليه آيات القرآن الكريم صراحةً ولم يقترحها البشر، خلافاً لما هو الأمر مع الكتب السماويّة الأخرى التي اصطلح البشر على معظم تسمياتها[21].وقد ردّد القرآن الكريم هذه التسميات منذ بواكير نزوله، على نحو يؤكّد الوعي التامّ، ومنذ تلك المرحلة المتقدّمة، بتكامل الكتاب وبشخصيّته اللغويّة المتفرّدة، فتكرّرت فيه تلك الألفاظ عشرات المرّات. فلفظ (القرآن) يرد فيه 70 مرّة، ولفظ (سورة)، مفرداً أو جمعاً، 10 مرّات، ولفظ (آية)، مفرداً أو مثنّىً أو جمعاً، وبمعانيه المختلفة، ومنها المعجزة والعلامة، 382 مرّة[22] .

ويتكرّر اللفظ (يتلو) في القرآن الكريم، بمشتقّاته المتعدّدة، 62 مرّة. وفي استخدام القرآن لهذا اللفظ المبتكر الدقيق دلالةٌ منهجيّةٌ موضوعيّةٌ قويّةٌ لأصل القرآن السماويّ. فلو حدث أن أجرى أحدهم معي مقابلةً حول كتابٍ لي

---

(21) من الغريب مثلاً ألّا نجد اسم (التوراة) في التوراة أبداً، وإنما نجده مرّةً واحدةً في الإنجيل "أوَما قرأتُمْ في التوراةِ أنّ الكهَنةَ في السبتِ في الهيكلِ يدنّسون السبتَ وهم أبرياء" (متّى: 12-5).

(22) من المهمّ أن ننبّه هنا إلى أنّ استخدام القرآن لهذا اللفظ (آية) بغير صيغة الجمع أينما ورد (86 مرّةً بصيغة المفرد ومرةً واحدةً بصيغة المثنّى) يشير دائماً، ومن غير استثناء، إلى معنى (المعجزة الإلهيّة، أو العلامة) وليس إلى الآية القرآنيّة، ممّا قد يشير إلى أن معنى الآية 106 من سورة البقرة ﴿ما نَنْسَخْ مِن آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها﴾ التي ما زالت تثير جدلاً طويلاً بين العلماء حول النسخ في القرآن؛ ليس نسخ الآيات القرآنيّة بل نسخ المعجزات الإلهيّة.

وسألني عمّا أوردته فيه لقلت: إنّني ذكرتُ في الكتاب كذا، وأوردتُ كذا، وذهبتُ إلى كذا، وقلتُ كذا، ولكن ما كان للقرآن الكريم أن يورد مثل هذه الأفعال على لسان الرسول وهو ﷺ يعلم أنّه ينقل ويتحدّث عن كلام ليس من صنعه أو تأليفه، فقد كان الرسول "تالياً" أي "ثانياً" أو "لاحقاً" بهذه الآيات - عكس "أوّلاً" أو "سابقاً" - إذ قرأها عليه جبريل أوّلاً ثمّ "تلاه" محمّدٌ ﷺ في قراءتها على المسلمين - كما سبق أن أوضحنا - وإذن فهو "تالٍ" لها وليس "قائلاً" أو "مؤلِّفاً"، خلافاً لوضعي أنا مع كتابي، وهذا ما تعبّر عنه الآيات بوضوح:

- ﴿وإذا تُليتْ عليهمْ آياتُنا زادتْهمْ إيماناً﴾ [الأنفال: 2]
- ﴿قُل تعالَوا أَتْلُ ما حَرَّمَ ربُّكمْ عليكمْ﴾ [الأنعام: 151]
- ﴿واذكُرنَ ما يُتْلَى في بيوتِكُنَّ مِن آياتِ اللهِ والحكمةِ﴾ [الأحزاب: 34]

**2 - القراءات المتعدّدة:**

لقد كُتب القرآن الكريم بطريقةٍ واحدة، ولكنّ له قراءاتٍ متعدّدة؛ إذ يُقرأ كثيرٌ من ألفاظه وعباراته بأكثر من قراءةٍ - "هكذا أُنزِل.. وهكذا أُنزِل" حسب قول الرسول ﷺ للصحابيَّين اللذين اختلفا على قراءة آية -. وقد يُقرأ اللفظ بطريقتين أو ثلاثٍ أو أكثر "نزل القرآن على سبعة أحرف"، وتصل قراءات بعض ألفاظه إلى العشرات، كما في اللفظ (أفٍّ) في الآية 23 من (الإسراء) والآية 67 من (الأنبياء) مثلاً، وقد قرأها بعضهم بتسعٍ وثلاثين طريقة[23].

(23) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص303. وفسّر بعضهم (الأحرف السبعة) بتعدّد الألفاظ للمعنى الواحد، وأنّ هذه الألفاظ كانت موجودة في نُسخ المصاحف حين أحرقها عثمان ﷺ خشية اختلاف المسلمين عليها، وهي قليلةٌ ومحدودة. انظر: القطّان، منّاع. **مباحث في علوم القرآن**. مرجع سابق، ص144 وما بعدها.

**3 – اختلاف قراءته عن كتابته:**

فللقرآن أيضاً قواعده الخاصّة في القراءة، فيُلفظ على غير ما يُكتب، من غير أن يؤثّر ذلك في معانيه، ككتابة ألفاظ (الصلاة) و(الزكاة) و(الحياة) و(النجاة) و(الغداة) و(الربا) بالواو مع قراءتنا لها بالألف، وكقراءتنا (قراءة حفص) للّفظ (لكنّا) في الآية 37 من سورة (الكهف)، وللّفظ (سَلاسِلا) في الآية 4 واللفظ (قَواريرا) في الآية 16 من سورة (الإنسان) من غير الألِف الأخيرة مع أنها تظهر في الكتابة، وكذلك عدم مدّ هاء الضمير إذا تَحرّك ما بعدها وسُبقت بساكن، خلافاً لقراءتنا البشريّة، كما في الآية 3 من سورة (الكهف) مثلاً (ماكثينَ فيه أبَدا) ولا يُستثنى من ذلك إلّا الآية 69 من سورة (الفرقان): (ويَخْلُدْ فيهِ مُهانا) فتُلفظ هذه الأخيرة وحدها (فيهي) كما نلفظها عادةً في غير القرآن.

**4 – اختلاف لفظه عن لفظنا (علم التجويد):**

وللقرآن الكريم قواعده الخاصّة في اللفظ، فاستناداً إلى قواعد علم التجويد، التي اختصّ بها القرآن، تُلفَظ كلماته، كما رأينا، بطريقةٍ مختلفةٍ عن لفظ أيّ نصٍّ عربيٍّ آخر، حتّى الحديث الشريف. ولم يعرف العرب قبل القرآن الكريم، ولا بعده، لا في شعرهم ولا في نثرهم، هذه الطرائق اللغويّة الجديدة التي كوّنت فيما بعد العلم المسمّى بعلم التجويد الذي ظلّ خاصّاً بالكتاب الكريم وحده.

**5 – اختلاف كتابته عن كتابتنا:**

وللقرآن قواعده الخاصّة بالكتابة وهي التي اصطُلح عليها في عهد النبوّة والخلفاء الراشدين ثمّ لم تتغيّر بعد ذلك إلى اليوم، ولم يشاركه فيها أيّ كتابٍ آخر. إنّ قواعدنا الإملائيّة الحاليّة، وقواعد كتب تراثنا كلّها، لا تتوافق مع كثيرٍ من قواعد الكتابة القرآنيّة، كما يتّضح لنا من هذه النماذج المختارة عشوائيّاً من صفحات القرآن الكريم:

يَأيّها الذين، يَموسى (أي: ياموسى)، أيُّهَ المُؤمنون، تأويلُ رُءْيَيَ (أي: رُؤياي)، القُرْءانُ، رَحْمَتُ الله، لَعْنَتَ الله، سُنَّتُ الأوّلِيْن، امرأتُ عِمران، بَقِيَّتُ الله، وسوف يُؤْتِ اللهُ، سَنَدْعُ الزَّبانِيَه، ويَوْمَ يُنادِ المُنادِ، فَأُلَئِك، ءَالاءِ، مِلّةَ ءَاباءِي (أي: آبائي)، إِبْرَهِم وإِسْمَعِيل، تَاللهِ تَفْتَؤُا (أي: تَفْتَأُ)، أفَإِينْ (أي: أفَإِنْ)، مالِ هذا الكتابِ (أي: ما لِهذا)، وإِيتائِ (أي: وإِيْتاءِ)، مِن تِلقاءِى (أي: تِلْقاءِ)، ولقد رَءَاهُ (أي: رآه)، الَّيْل (أي: اللّيل)، أُوْلُوا الألْباب، ولا تَقولَنَّ لِشَاْيْءٍ (أي: لشيءٍ)، وَجِاىءَ (أي: وجِيءَ)، سَأُوْرِيْكُمْ (أي: سأُرِيْكُم)، بِأَييِّكُمُ (أي: بأَيِّكُم)، أَقْصَا المدينة، لَدَا الباب، قال المَلَؤُ، وملإِيْهِ (أي: ومَلَئِه)، ما نَشَؤُا (أي: ما نشاءُ)، أَمّا اشتَمَلَتْ عليه (أي: أَمْ ما)، وإِنْ ما نُرِيَنَّك (أي: إِمّا)، وحيثُ ما كنتم، لأاذْبَحَنَّه (أي: لأَذْبَحَنّه)، بأَيْيْدٍ (أي: بأَيْدٍ، وهو القوّة)، أَؤُنزِلَ (أي: أَأُنزِل)، إِنّا بُرَءَؤُا (أي: بُرَآءُ)، ولا تايئسوا (أي: تيأسوا) كُلَّ ما جاءَ (أي: كلَّما)، لتّخَذْتَ عليه (أي: لاتَّخذْتَ)، والذين سَعَو في (أي: سعَوا)، فَسْئَلْه (أي: فاسألْه)، وَسْئَلوا اللهَ (أي: واسألوا) ..

**6 - اشتراط السماع في توثيقه:**

يُشترط في رواية القرآن الكريم السماع، ولا يُكتفى بالتوثيق الكتابيّ. فمع وجود قواعد خاصّةٍ لقراءته يفصّلها لنا (علم التجويد) فلا بدّ من الاعتماد، إضافةً إلى ذلك، على السماع والرواية الشفويّة المتّصلة من تلميذٍ عن شيخٍ عن شيخه حتى تصل السلسلة إلى الرسول ﷺ نفسه.

إنّ قواعد التجويد لن تفيدنا مثلاً في قراءة هذه الآية التي تبدأ بها سورة (مريم) والمتشكّلة من ائتلاف خمسة من الحروف الأبجديّة:

- ﴿كهيعص﴾ [مريم: 1]

فالسماع والنقل يقتضيان مدّ حروف الكاف والعين والصاد في قراءتنا لهذه الآية، ولكن دون الهاء أو الياء.

ولن نجد تفسيراً لمدّ حروف الميم والعين والسين والقاف، ولكن دون الحاء، في قوله تعالى:

- ﴿حم. عسق﴾ [الشورى: 1-2]

وليس لدى علم التجويد، وقد اعتمد جزءٌ كبيرٌ منه على السَّماع دون القياس، إجابةٌ على مدّ السين والميم، ولكن دون الطاء، في قوله تعالى[24]:

- ﴿طسم﴾ [القصص: 1]

بل ليس في علم التجويد ما يفسّر لنا قراءة حرف الطاء هنا - وكذلك حروف الهاء والياء والحاء في الآيات السابقة - مقصورة الهمزة هكذا (طا، ها، يا، حا) وليس كما نلفظها في لغتنا عادةً (طاء، هاء، ياء، حاء) على حين تبقى الحروف الأخرى بمدّها الكامل هكذا (سين ميم..).

وليس في علم التجويد أيضاً ما يفسّر لنا التسكين الملازم لهذه الحروف، فهي تُقرأ ساكنةً في الآيات هكذا (عينْ، صادْ، سينْ، قافْ، ميمْ) وليس محرّكةً كما هي في قراءتنا العاديّة، فنحن نقول: (هذه سينٌ سبقتها عينٌ وارتبطت بقافٍ وتحوّلت ميماً.. إلخ)[25].

وتتكرّر هذه الظواهر في عددٍ من فواتح السوَر، وهي ممّا لا تعيننا قواعد التجويد، ولا أيّة قواعد لغويّةٍ أخرى، على تفسير موجباتها ودواعيها.

ثمّ لو درسنا وضع اللفظ (عبادي) داخل سورة واحدة هي سورة (الزُمَر) لوجدناه يتجرّد من الياء، كتابةً ولفظاً، في ثلاث آياتٍ:

- ﴿قُلْ يا عِبادِ الذين آمنوا اتّقُوا ربَّكُمْ﴾ [الآية: 10]
- ﴿يا عِبادِ فاتّقونِ﴾ [الآية: 16]
- ﴿فبشِّرْ عِبادِ﴾ [الآية: 17]

---

(24) مع ملاحظة أنّ الحروف التي لا تُمدّ في هذه المقطَّعات هي تلك التي ينتهي لفظها، في قراءتنا البشريّة لها، بألف المدّ (هاء، ياء، حاء طاء..).

(25) هذا يجعلنا نستغرب آراء بعض العلماء الذين ذهبوا إلى أنّ الحرفين (طه) في مطلع سورة (طه) هما من أسماء النبيّ ﷺ، ولو أنّ الأمر كما قالوا لجرى على هذا اللفظ ما يجري على المنادى العلَم فبُني على الضم فقرأناه هكذا (طهُ)، ثمّ لماذا يصادف ألّا يأتي هذا "الاسم النبويّ" إلّا في مطلع السورة فلا يتكرّر أبداً في قرآنٍ أو حديث، مثله مثل الياء والسين أيضاً في مطلع سورة (يس) وقد قيل فيهما أيضاً ما قيل في (طه).

ولكنّ الياء تعود إليه من جديدٍ في آيةٍ أخرى لاحقة، بل، ولنا أن نزداد عجباً، تأتي مفتوحةً أيضاً إمعاناً في إثبات لفظها:

- ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهِمْ لا تَقنَطوا مِن رحمةِ اللهِ﴾ [الآية: 53]

ولا نجد حقّاً أيّة قاعدةٍ، في التجويد أو غيره، تساعدنا في تفسير هذه المفارقة، وضمن السورة الواحدة. ولو تُرك الأمر لقواعد قراءتنا البشريّة التقليديّة لأثبتنا الياء، كتابةً ولفظاً، في آيتين على الأقلّ من الآيات الثلاث التي حُذفت فيها (16 و17)، لعدم التقاء الياء فيهما مع ساكنٍ بعدها ييسّر لنا حذفها، حذفاً لفظيّاً على الأقلّ. وعلى العكس من ذلك، كنّا سنخصّ الحذف، إذا كان لا بدّ من هذا الحذف، بالآية (53) التي ثبتت فيها الياء، ومفتوحةً أيضاً، وذلك لالتقاء الياء في هذه الآية مع ساكنٍ بعدها هو الألف في (الذين) مع أنّ هذا السياق اللغويّ نفسه يتكرّر، بالألفاظ نفسها، في الآية (10) ولكن الياء حُذفت هناك (يا عبادِ الذين).

وكثيرٌ من آداب القراءة القرآنيّة لا قواعد لها معروفة، فهي ليست قياسيّةً بحيث يكوّن تكرارُ حالتها أكثر من مرّةٍ قاعدةً لنا تساعدنا على ضبط قراءتها حيثما وردت؛ إذ لا قاعدة هنا إلّا القاعدة القرآنيّة الأشهر: السماع.. هكذا سمعها الرسول ﷺ من جبريل، ثمّ سمعها المسلمون من الرسول، ثمّ سمعها مَن بَعدهم عنهم، وهكذا..

لن تجد مثلاً، مهما بحثت في قواعد اللغة العربيّة، أو غيرها من قواعد اللغات البشريّة الأخرى، تفسيراً لتلك السكتة الخفيفة التي ينبغي أن نَسكتها، ومن غير تنفّس، بين حرفَيْ النون والراء في قوله تعالى: ﴿مَنْ راقٍ﴾ [القيامة: 27] أو السكتة الخفيفة الأخرى بين حرفَيْ اللام والراء في قوله تعالى: ﴿بلْ رانَ﴾ [المطفّفين: 14]. إنّها، ببساطة، الآداب القرآنيّة المنزلة التي لا تفسير لها، شأنها شأن كثيرٍ من الخصائص اللغويّة الأخرى للقرآن الكريم.

هذه التفاصيل اللفظيّة الدقيقة التي نزل بها القرآن، والتي لا تستند إلى قاعدة، لها فاعليّةٌ تحريضيّةٌ وقائيّةٌ من شأنها أن تحثّ قارئ القرآن على التحسّب والترقّب وعدم الاستسلام لخَدَر القراءة التقليديّة، بحيث يحافظ بهذه

القراءة الواعية، والمتيقّظة باستمرار، على كلّ التفاصيل اللغويّة الخاصّة بالقراءة القرآنيّة. إنّ هذه العناية الفائقة بالتفاصيل تكفل عدم الخروج، الواعي أو غير الواعي، عن النصّ وعن حرفيّته المتناهية في الدقّة، ومن ثمّ، فهي تشكّل ما يشبه الحصن الرقميّ الذي يحمي النصّ القرآني من أيّ تغييرٍ أو تحريفٍ، مقصودٍ أو غير مقصود، على مرّ الأجيال والقرون.

**7 – اشتراط التغنّي بقراءته:**

تُقرأ جميع سور القرآن تغنّياً، وينصّ على ذلك عددٌ من الأحاديث النبويّة كما مرّ بنا، وكما في قوله ﷺ: "تَغَنَّوا بالقرآن، ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن".

**8 – اللغة المنفتحة:**

إنّ جزءاً ضخماً من ألفاظ القرآن وعباراته يُفهم بأكثر من طريقة، من غير أن يكون هناك أيّ تناقضٍ بين المعاني المقترحة مهما تعدّدت. وهذا الجانب الانفتاحيّ في لغة القرآن الكريم له دورٌ كبير في حيويّته واستمراريّة أحكامه وتطوّر علومه، كما سنعرف عند دراستنا لهذا الجانب اللغويّ فيه.

**9 – اللغة المنغلقة (فواتح السور):**

لقد ظلّت معاني فواتح السوَر مثل (الم، المص، الر، كهيعص، طسم، طه، يس، حم، عسق..) سرّاً مستغلقاً على الجميع، ولم يتوصّل إلى حقيقة هذه المعاني أيٌّ من الصحابة أو التابعين ومن توالى بعدهم من العلماء والمفسّرين حتى يومنا هذا، وليس لدينا إلّا التأويلات والاحتمالات التي لا تقوم على برهان (يجمع هذه الحروف قولهم: صِلْهُ سُحَيْراً مَن قَطَعَكَ).

والغريب أنّنا لا نكاد نمرّ في مجموعات الحديث الشريف، على ضخامتها، بأيّة مناسبةٍ يسأل فيها الصحابة نبيّهم الكريم عن معنى هذه الفواتح العجيبة، مع غموضها الشديد عليهم كما هي علينا، ومع وجود 29 سورةً من أصل 114 تبدأ بهذه الفواتح؛ أي أكثر من ربع سوَر القرآن، وكلّ ما عثرت

عليه في هذا الباب سؤالٌ وجّهه أعرابيٌّ للرسول عن (حم) فقال ﷺ: "أسماءٌ وفواتحُ سُوَر". يقول الشوكاني: "فإن قلتَ: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيءٌ يصلح للتمسّك به؟ قلتُ: لا أعلم أنّ رسول الله ﷺ تكلّم في شيءٍ من معانيها"[26].

وقد جرّب الكثيرون مهاراتهم العقليّة لاكتشاف أسرار هذه "المقطّعات" كما أُطلق عليها، فإن استطاعوا أن يقنعونا، بعض الإقناع، بتفسير بعضها فإنّهم يخفقون في سائرها.

ويفسّر المستشرق النمساوي محمّد أسد مطلع سورة (يس) بما ذهب إليه ابن عباس، ووافقه عليه عِكرمة والضحّاك والحسن البصريّ وسعيد بن جبير وغيرهم من المفسّرين، من أنّ الحرف الأوّل منهما (يا) يعني النداء، كما في الأداة المعروفة - إذ لا يُقرأ هنا (ياء) هكذا بالهمزة كما نلفظ هذا الحرف عادةً - والحرف الثاني (سين) يعني بلغة طيٍّ (إنسان) أي: أيّها الإنسان، أو هو، في رأي الزمخشري، اختصارٌ للفظ (أُنَيسِين) الذي هو تصغير (إنسان) وهو تصغيرٌ يراد منه التعظيم لأنّه موجّهٌ للرسول ﷺ كما يُفهم من الآية 3 بعدها (إنّكَ لَمِنَ المرسَلين)[27].

ولكنّ من ذهب إلى هذا التفسير ينسى أنّ كلّ حروف فواتح السوَر، الذي ينتهي لفظها عادةً بالهمزة الممدودة في لغتنا، تُقطع فيها الهمزة في القراءة

---

(26) الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. **فتح القدير**، مرجع سابق، ص1-31. وقد عثرت في نصٍّ عن عمر بن الخطاب ﷺ ورد في عدّة رواياتٍ ضُعّفت جميعاً، وتقول إحداها: "عن حُذيفة أنه سئل عن ﴿حم. عسق﴾ وعمرُ وعليٌّ وابن مسعودٍ وأبيّ بن كعبٍ وابن عبّاسٍ وعدّةٌ من أصحاب النبي ﷺ حضورٌ، فقال حذيفة: العين: عذابٌ، والسين: السِنة والمجاعة، والقاف: قومٌ يُقذفون في آخر الزمان. فقال له عمر: ممّن هم؟ قال: من ولَد العبّاس، في مدينةٍ يقال لها الزوراء، ويُقتل فيها مَقتلةٌ عظيمة، وعليهم تقوم الساعة، قال ابن عبّاس: ليس ذلك فينا (يعني في عائلته)، ولكنِ القاف: قذفٌ وخسفٌ يكون، قال عمر لحُذيفة: أمّا أنت فقد أصبت التفسير، وأصاب ابنُ عبّاسٍ المعنى. فأصابت ابنَ عبّاسٍ الحُمّى حتى عادهُ عمرُ وعدّةٌ من أصحاب النبي ﷺ، ممّا سمع من حذيفة" - رواه الخطيب البغداديّ في (تاريخ بغداد) عن عبيد بن عمير.

(27) Muhammad Asad. *The Message of the Qur'an*. Bristol (England): The Book Foundation, 2003, Vol. 5, P: 758.

القرآنيّة، وليس الياء وحدها التي في سورة (يس)، كما مرّ بنا قبل قليل.

ويربط الفَراهي بين حرف الألف الذي تبدأ به سورة (البقرة): (الم) ومعنى الألف بالعبريّة وهو البقرة، ومرّةً أخرى يربط في السور الأربع التي تبدأ بحرف الطاء (طه، طسم، طس، طسم) بين معنى الطاء في العبريّة، وهو الحيّة، وابتداء هذه السور جميعاً، بعد التمهيد، بقصة موسى وعصاه وانقلابها إلى حيّة، كما يربط بين الحرف (ن) الذي افتُتحت به سورة (القلم) - ويُطلق عليها أيضاً سورة (ن) - ويونس عليه السلام المعروف بلقب (ذي النون) أي (صاحب الحوت). يقول الفراهي: "والسورة.. جاء بها ذكر يونس عليه السلام ولم يُذكر فيها غيره من الأنبياء، وذكره الله تعالى فيها باسم (صاحب الحوت)"[28].

**10 - خصائص لغويّةٌ لم يُسبق إليها:**

للقرآن الكريم أعرافه الكثيرة واستعمالاته اللغويّة والنحويّة الخاصّة التي لم يأتِ بها كتابٌ قبله (وهي ممّا وُضع هذا الكتاب لإثباته).

**11 - خصائص لغويّةٌ لم يُلحَق بها:**

وله أيضاً أعرافه الكثيرة واستعمالاته اللغويّة والنحويّة الخاصّة التي لم يأتِ بها أحدٌ بعده (وهي أيضاً ممّا وُضع هذا الكتاب لإثباته).

---

(28) راجع: عبد الحميد الفراهي، **تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان**. أعظم كره (الهند): الدائرة الحميدية، 2000، ص97 وما بعدها. ومن المؤكّد أنْ لا شيء مؤكّدٌ من هذه التأويلات، على ما فيها من جاذبيّةٍ وطرافةٍ وإثارة. ورغم أنّنا أدخلنا هذه الحروف تحت باب (اللغة المنغلقة) فإنّها ولا شكّ فتحت أبواباً وآفاقاً واسعةً أمام المؤوّلين والمجتهدين ليجرّبوا مهاراتهم اللغويّة والفكريّة، فهذا يحصيها ليجد أنّها في مجموعها نصف حروف العربيّة تماماً (14 حرفاً) لا أكثر ولا أقلّ، وآخر يكتشف أنّه لا يتكرّر فيها حرفان متشابهان رسماً، فلو وجدت بينها العين فلن تجد الغين، ولو وجدت الصاد فلن تجد الضاد، ولو وجدت الطاء فلن تجد الظاء، ولو وجدت السين فلن تجد الشين، ولو وجدت الحاء فلن تجد الخاء. وغير ذلك كثير من الكشوف والاجتهادات التي سوف يظلّ الباب مفتوحاً لها إلى يوم الدين.

**12 - عدم اختلاطه بكلام البشر:**

إنّه الكتاب الوحيد الذي تؤكّد نصوصُه ويؤكّد أصحابه أنّه، من أوّل حرفٍ إلى آخر حرفٍ فيه، هو من كلام الله تعالى لم يدخل فيه شيءٌ من كلام البشر. ومن الواضح لكلّ من يقرأه أنّه موجّهٌ من طرفٍ واحد، بغضّ النظر عن الضمائر التي يستخدمها هذا الطرف للتعبير عن نفسه، وهو الله تعالى، إلى طرفٍ آخر متلقٍّ وهو الرسول ﷺ وبقيّة البشر.

**13 - اختلاف أسلوبه كلّياً عن أسلوب حامله:**

حَمل هذا الكتابَ إلى الإنسانيّة رجلٌ يستخدم في حديثه وخطابه، الرسميّ واليوميّ، وقد وصل إلينا منه عشرات المجلّدات، أسلوباً يختلف كلّياً، وفي كلّ عبارةٍ من عباراته، عن أسلوب الكتاب الذي حمله إليهم. وسنتبيّن فيما بعد اقتراب لغة الرسول ﷺ، من لغة البشر، بحيث استطاع بعضهم اختراقها وتقليدها، على عظمتها وتفوّقها، وابتعاد لغة القرآن عنها بحيث عجز الجميع عن الاقتراب منها وتقليدها، مع المحاولات الكثيرة التي بذلها بعض الملاحدة في هذا السبيل.

**14 - انفراده بتحدّي محاولة تقليده:**

إنّه الكتاب الوحيد الذي تجرّأ فتحدّى الناس جميعاً، في ستة مواضع على الأقلّ، أن يأتوا بمِثله أو بمثل سورةٍ واحدةٍ من سوَره، أي بسطرٍ واحدٍ من أسطره (إذ لا يتجاوز حجم بعض هذه السوَر سطراً واحداً).

**15 - انفراده بتحدّي اكتشاف خطإٍ فيه:**

وهو أيضاً الكتاب الوحيد الذي تحدّى الناس، في عصره وعلى مرّ العصور، أن يجدوا فيه خطأً واحداً في كلّ ما أتى بين دفّتيه من أخبارٍ وأفكارٍ وحقائق تاريخيّةٍ وعلميّةٍ وفلكيّةٍ وإنسانيّةٍ وتشريعيّة:

- ﴿ولو كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ لَوجَدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: 82]

- ﴿كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثمّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حكيمٍ خبير﴾ [هود: 1]

مع أنّه يورد ما لم يتجرّأ، ولن يتجرّأ أحدٌ على إيراده، وهو تقريرٌ لمصير عدّة أشخاصٍ تحدّوا الإسلام ونبيّه، وتحديد النهاية التي يموتون عليها، كعمّ الرسول ﷺ أبي لهبٍ، وكذلك زوجته (سيَصلَى ناراً ذاتَ لهَب، وامرأتُه حمّالةَ الحطب)، وكذلك الوليد بن المغيرة (..إنْ هذا إلّا قولُ البشَر، سأُصْليْهِ سَقَر) ثمّ عاش هؤلاء، بعد نزول الآيات بحقّهم، سنواتٍ عديدةً كان يُحتمل خلالها أن يعتنقوا الإسلام، إمّا تحدّياً منهم للقرآن، وإمّا عن قناعةٍ حقيقيّةٍ بالدين الجديد، مثلما اعتنقه عرب الجزيرة قاطبةً بعد ذلك، ولكنّهم ماتوا وحدهم على الشرك، تماماً كما سبق أن قرّره القرآن بحقّهم.

هذا فضلاً عن الحقائق العلمية الكثيرة، التي تُعدّ بالمئات، ممّا قرّره القرآن الكريم حين كانت الإنسانيّة ما تزال في طفولتها، قبل ألف عام أو أكثر من وقوع ما سينكشف لها من أسرار العلوم وحقائقها. ومن أبرز هذه الحقائق؛ تقرير القرآن لكرويّة الأرض، ولدورانها، ولأصلها الغازيّ، وللانفجار الكبير الذي انفصلت فيه عن طبيعتها الغازية لتكون الكرة الأرضيّة، وأنّ الكون الذي نعيش فيه مستمرّ بالتوسّع والتضخّم وسوف يظلّ كذلك:

- ﴿يُكوِّرُ الليلَ على النهارِ ويكوِّرُ النهارَ على الليل﴾ [الزمر: 5]
- ﴿والأرضَ بعدَ ذلكَ دَحاها﴾ [النازعات: 30]
- ﴿وتَرى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السَّحاب﴾ [النمل: 88]
- ﴿ثمّ استوى إلى السماءِ وهي دُخانٌ فقالَ لها وللأرضِ ائتِيا طَوعاً أو كَرهاً﴾ [فُصّلت: 11]
- ﴿أوَلم يَرَ الذين كفَروا أنّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ففَتَقْناهما﴾ [الأنبياء: 30]
- ﴿والسماءَ بنيناها بأييدٍ وإنّا لَمُوسِعون﴾ [الذاريات: 47]

**16 - ارتباط قراءته بطقوسٍ خاصّة:**

تتطلّب قراءةُ القرآن الكريم من قارئه القيامَ باستجاباتٍ طقسيّةٍ لما يقرأه، كالسجود في بعض المواقع من الآيات (14 موقعاً على الأقلّ)، والالتزام

بآدابٍ معيّنةٍ نصّت عليها الآيات الكريمة:

- ﴿وإذا قُرِئَ القرآنُ فاستمعوا له وأنصِتوا﴾ [الأعراف: 204]
- ﴿فإذا قرأْتَ القرآنَ فاستَعِذْ بالله منَ الشيطانِ الرّجيم﴾ [النحل: 98]
- ﴿لايمَسُّه إلّا المُطهَّرون﴾ [الواقعة: 79]

كما تنصّ عليها الأحاديث النبويّة الشريفة:

- . . إذا مرّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبّح، وإذا مَرّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرّ بتعوُّذٍ تعوّذ[29].
- طيِّبوا أفواهَكم بالسِّواك فإنّها طُرُقُ القرآن[30].
- أحسَنُ الناسِ قراءةً الذي إذا قرأ رأيتَ أنّه يَخشى اللهَ[31].
- إنّ المصلّي يُناجي ربَّه فلْيَنظُرْ بمَ يُناجيه، ولا يَجْهَرْ بعضُكم على بعضٍ بالقرآن[32].
- ﴿لا تقرأ القرآنَ وأنتَ جُنُبٌ﴾[33].
- اقرأ القرآنَ ما نَهاكَ، فإنْ لم يَنْهَكَ فلستَ تقرأُه[34].
- مَنْ قرأ منكم (بالتّينِ والزّيتونِ) فانتهى إلى آخرِها (أليس اللهُ بأحكمِ الحاكمين) فلْيَقُلْ: بلى وأنا على ذلك من الشاهدِين، ومن قرأ (لا أُقْسِمُ بيومِ القيامة) فانتهى إلى (أليس ذلك بقادرٍ على أنْ يُحْيِيَ المَوتى) فلْيَقُلْ: بلى، ومن قرأ (والمُرْسَلاتِ) فبلغ (فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمِنون) فليقُلْ: آمَنّا بالله[35].

---

(29) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص536.
(30) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج2، ص382.
(31) المرجع السابق، ج2، ص388 .
(32) الطبراني، **المعجم الأوسط**، مرجع سابق، ج5، ص41 .
(33) البزاز، أحمد بن عمرو. **البحر الزخار**. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، بيروت: مؤسسة علوم القرآن، 1409هـ، ج8، ص123 .
(34) القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر. **مسند الشهاب**. تحقيق: حمدي السلفي، بيروت: دار الرسالة، 1407هـ، ج1، ص245 .
(35) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج2، ص377.

- عن عوف بن مالك الأشجعيّ، قال: «قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلةً، فقام فقرأ سورة (البقرة)، لا يمرّ بآيةِ رحمةٍ إلّا وقف»[36].

إنَّ هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكَوا[37].

وهذه المزاوجة بين القراءة والممارسة تمثّل نوعاً من التفاعل والحوار بين القارئ والمقروء لم يعرفه تاريخ الكتب من قبل، وهو تفاعلٌ من شأنه أن يضمن اقتران قراءتنا للنص القرآني بالتطبيق العمليّ لما في هذا النصّ، فهو بمثابة إحكامٍ وتدريبٍ عمليٍّ للمؤمن على الربط بين القول والعمل في دينه.

**17 - يحفظه الملايين غيباً:**

إنّه الكتاب الوحيد الذي يحفظه عن ظَهر قلبٍ ملايينُ من البشر يعيشون في كلّ بلدٍ وفي كلّ قريةٍ من بلدان العالم الإسلاميّ، صحرائها وجبالها وسهولها وجزُرها، ولا يدخل في هذا الرقم أولئك الذين يحفظون أجزاءً منه، قلّت أو كثرت. وقد أكّد تعالى لنبيّه أهمّية هذا الجانب التوثيقي الذي منحه الله لكتابه، وعدّه من أعظم ما منّ به الله على رسوله، كما يؤكّد الحديث الشريف:

- عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لمّا فرغتُ ممّا أمرني به مَن أمَرَ السمواتِ والأرضَ قلتُ: يا ربِّ، إنّه لم يكنْ نبيٌّ قبلي إلّا وقد كرّمتَه، جعلتَ إبراهيمَ خليلاً، وموسى كَليماً، وسَخّرْتَ لداودَ الجبالَ، ولسليمان الرّيحَ والشّياطين، وأحييتَ لعيسى الموتى، فما جَعلْتَ لي؟ قال: أوَليس قد أعطيتُكَ أفضلَ مِن ذلكَ كلِه: أنّي لا أُذكَرُ إلّا ذُكِرْتَ معي، وجَعلْتُ صدورَ أمّتِكَ أناجيلَ يَقرأون القرآنَ ظاهراً (أي غيباً) ولم أُعْطِها أمّةً (غيرَ أمّتك)، وأعطيتُكَ كنزاً مِن كنوزِ عرشي: لا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيم"[38].

---

(36) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج2، ص375.

(37) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج2، ص362.

(38) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر. **الدر المنثور**. بيروت: دار الفكر، 1993، ج8، ص549.

**18 – معظم حفَظته ممّن لا يتكلّمون لغته:**

الكتاب عربيٌّ، والعرب لا يشكّلون أكثر من 20% من المسلمين في العالم، ومعظم أولئك الذين يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلبٍ هم من غير العرب، وممّن لا يتكلّمون العربيّة ولا يفهمونها، ومن ثمّ لا يفهمون نصوص هذا الكتاب الذي يحفظونه غيباً، جنباً إلى جنب مع إخوانهم الذين يقرأونه من غير أن يحفظوه، وهم أكثر. ولم يحدث هذا ولن يحدث، وبهذا العدد البشريّ الهائل، لأيّ كتابٍ آخر على مرّ الزمان.

**19 – توثيق نصوصه ملايين المرّات يوميّاً:**

تتكرّر تلاوته، ومن ثَمّ توثيقُ نصوصه، جماعيّاً وأمام جماهير متفرّقةٍ ومتباعدة المسافات من المصلّين ثلاث مرّاتٍ كلّ يوم (في الصلوات الجهريّة: الفجر والمغرب والعِشاء) فضلاً عن صلاة الجمعة وصلاتَي الفِطر والأضحى، وذلك في ملايين المساجد على مساحة الكرة الأرضيّة، وعلى مدى أربعة عشر قرناً منذ نزول الوحي إلى اليوم، فإذا أخطأ الإمام في قراءة لفظٍ أو حرفٍ من الكتاب؛ بادر عشراتٌ من المصلّين خلفه إلى تنبيهه وتصحيح خطئه، فلا يُحتمل مع هذا النظام التوثيقيّ العجيب والمكثّف، الذي لم ولن يتيسّر لأيّ كتابٍ قبله أو بعده، دخولُ أو سقوطُ أو تحريفُ أيّ لفظٍ أو عبارةٍ أو قراءةٍ منه على توالي القرون وتنائي المسافات. وهذا النظام التوثيقيّ المتفرّد قد شكّل عاملاً أساسيّاً في الحفاظ على وحدة النصّ القرآنيّ، فالمذاهب الإسلاميّة الكثيرة قد تختلف على أشياء كثيرة، ولكنّها تجتمع، ومن غير أيّ تردّد، على نصٍّ قرآنيٍّ واحد، وهو ما لم يتوفّر لأيّ كتابٍ سماويٍّ آخر.

**20 – أحدثَ أوسعَ ثورةٍ علميّةٍ في زمنٍ قياسيّ:**

لم يحدث قبل القرآن، ولا بعده حتى اليوم، أن حقّق كتابٌ واحد، وفي عقودٍ قليلةٍ من السنين، ثورةً أدبيّةً وعلميّةً وفكريّةً ولغويّةً في كلّ الاتجاهات. لقد حدث أن أحدث كتابٌ لفلان ثورةً في علم الفلسفة، وكتابٌ لفلان ثورة في علم الاجتماع، وكتابٌ لفلان ثورة في علم الطب، وآخر لفلان في علم

التربية، مع عدم ادّعاء أيّ من هذه الكتب أنّها هي التي أوجدت تلك العلوم في بلادها، ولكن لم يحدث لكتابٍ ما، وخلال بضعة عقودٍ من السنين فحسب، وفي جزيرةٍ أمّيةٍ منعزلةٍ لم تكن تعرف قبله إلّا كتاباً واحداً، هو الكتاب المقدّس، وليس لديها أيّة فكرةٍ عن أيّ علمٍ من العلوم، أن أوجد، وبهذا الزمن القياسيّ، مكتبةً ضخمةً في علم اللغة، وأخرى في المعاجم، وأخرى في القراءات، وأخرى في التفسير، وأخرى في الرواية، وأخرى في أسباب النزول، وأخرى في علوم القرآن، وأخرى في علوم الحديث، وأخرى في الفقه والأحكام، وأخرى في الأصول، وأخرى في علم الرجال، وأخرى في الأنساب، وأخرى في الأدب، وأخرى في الشعر، وأخرى في النقد، وأخرى في البلاغة، وأخرى في التاريخ، وأخرى في علوم الأرض، وأخرى في علم الفلك والنجوم.. حتّى تحوّلت الجزيرة العربيّة، وكلّ الأصقاع التي وصل إليها القرآن بعد ذلك، إلى موائل للعلم تعجّ بالمكتبات الضخمة وبالعلماء والباحثين الذين يحجّون إليها من كلّ أطراف الأرض.

**وتفرّد كتابته بالعناية المتفوّقة:**

وأخيراً، وفضلاً عن تلك الخصائص العديدة التي خصّت السماء بها هذا الكتاب دون بقيّة الكتب السماويّة أو الأرضيّة؛ فقد خصّه البشر أيضاً بعنايةٍ لم يشاركه فيها أيّ كتابٍ آخر. إنّه الكتاب الوحيد الذي ضُبطت كتابته على نحو يتحدّد للقارئ معه، بدقّةٍ متناهية، مواضعُ إدغام الحرف وإخفائه وإظهاره، والمواضعُ التي يُلفظ فيها وإن سقط من الكتابة، أو يُهمَل فيها لفظه وإن كُتب، ومواضعُ قَلبِ لفظ الحرف إلى حرفٍ آخر مختلف، ومواضعُ المدّ والقصر والوصل والقطع، ومواضعُ السَّكْت القصير، ومواضعُ الوقف اللازم، والممنوع، والجائزِ المستحبّ، والجائزِ غير المستحبّ، وغير ذلك من دقائق قراءته، بل نُقلت هذه القراءة المجوّدة له إلى اللغات الأخرى، فأصبح القارئ الإنكليزيّ مثلاً يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم مجوّداً، من خلال الطبعات الصادرة بالإنكليزيّة المزوّدة بالترجمة الكتابيّة للحروف العربيّة إلى الحروف اللاتينيّة transliteration.

ولم يتوقّف الأمر عند ذلك بل تجاوزه إلى التزام العلماء المسلمين بشكل الحرف القرآني الذي وصل به إلينا، مع قبول التحسينات الفنّية التي يمكن أن تكون قد طرأت عليه على مرّ القرون، ومع قبول مختلف أنواع خطوط النسّخ التي وصلت إلينا من القدماء، وهكذا التزمت جميع الطبعات التي ظهرت للقرآن الكريم، ومن غير استثناء، بتلك الخطوط الأصليّة القديمة، فلا يمكن أن تجد أيّة طبعةٍ له، على تعدّدها، صادرةً بحروف المطبعة العاديّة التي تصدر بها كلّ الكتب عادةً، بما في ذلك الطبعات المترجمة التي أصدرها المستشرقون. بل، وإمعاناً في الحفاظ على النصّ القرآنيّ والدقّة في النقل والتوثيق، بالغ كثيرٌ من العلماء في هذا الأمر بحيث دَعوا إلى ضرورة التزام الكتّاب والمؤلّفين بالرسم القرآنيّ إذا حدث أن استشهدوا في كتبهم ولو بآيةٍ واحدةٍ من آيات القرآن الكريم.

هذه الحقائق جميعاً تحتّم علينا أن ننبّه إلى أنّ أيّة دراسةٍ للقرآن يجب أن تأخذ في حسبانها حقيقةَ أنّه كتابٌ سماويٌّ له قواعده الخاصّة والمختلفة عن قواعد أيّ كتابٍ أرضيّ، بل عن أيّ كتابٍ سماويٍّ آخر، وهو أمرٌ فات كثيراً من الباحثين، القدماء والمحدثين على السواء، ممّن تعرّض لدراسة هذا الكتاب الفريد، كما فعل مثلاً نصر حامد أبو زيد، حين وجدناه ينزلق هو نفسه إلى ما أخذه على القدماء، كالزركشيّ والسيوطيّ، من حرفيّة تعاملهم مع الزمن في القرآن، من غير أن يتنبّه، شأنه شأنهم، إلى زئبقيّة الحدود وتداخلها، في كثيرٍ من التعبيرات القرآنيّة، بين الزمن الماضي والحاضر والمستقبل[39].

(39) انظر: أبو زيد، نصر حامد. **مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن**. بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، 1996. ص97-115.